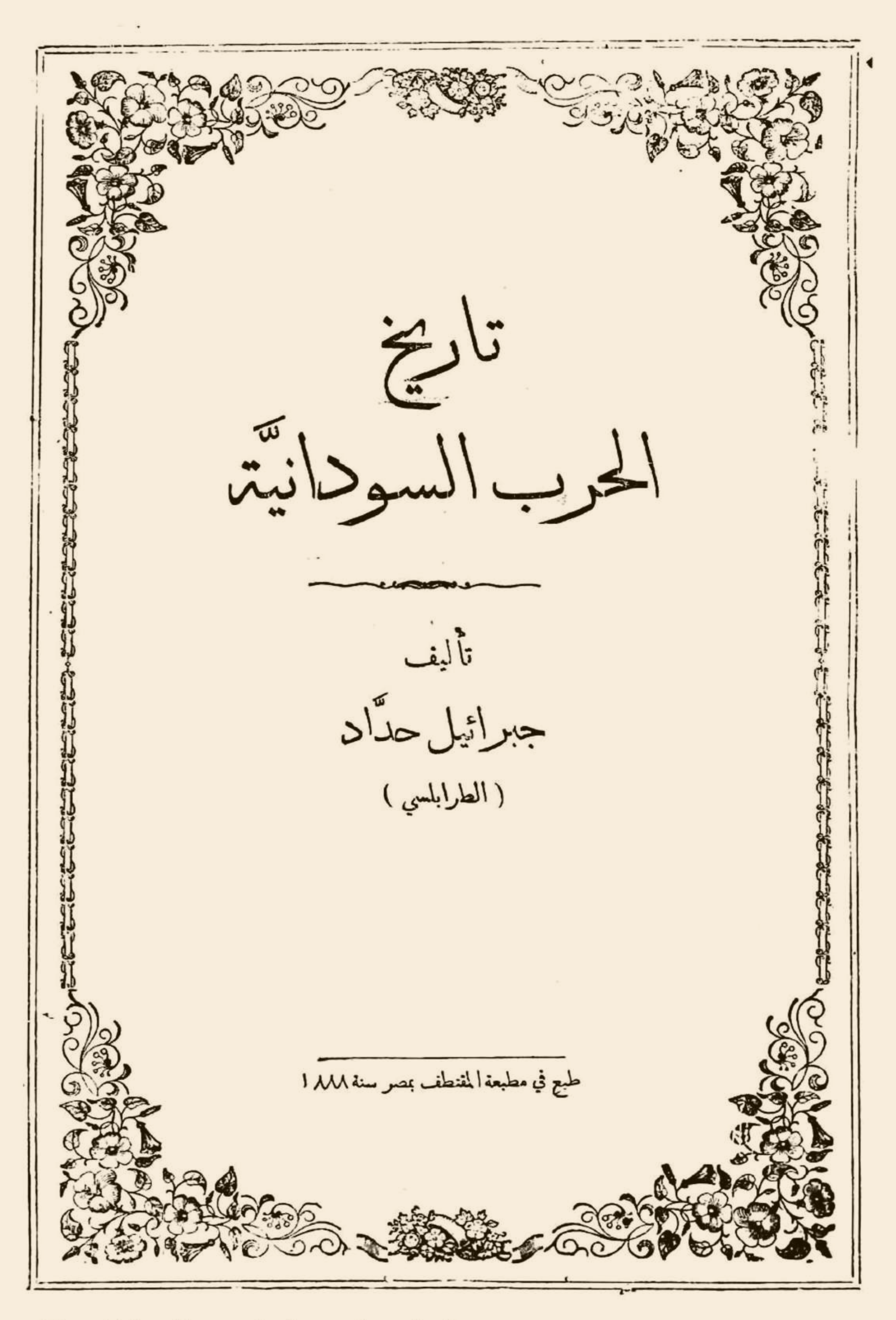
تاريخ الحرب السودانيّة

تأليف

جبرائيل حدّاد
(الطرابلسي)

طبع في مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٨٨٨



تاريخ الحرب السودانيَّة

تأليف

جبرائيل حدَّاد

(الطرابلسي)

طبع في مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٨٨٨

تقدمة الكتاب

الى

شقيقي الدكتور اسعد حداد

حكيمباشي البوليس المصري وجرّاح الاسبيتالية البروسيانية

في الاسكندرية

شقيقي الحبيب

ان ما بذلتهُ من العناية في تغذيتي بالبان المعارف وما افرغتهُ من الجهد في مساعدة سيدينا الوالدين على تثقيف عقلي وما انت شاغل من المركز العلمي حملني على تقديم باكورة اعمالي لك وافتتاح اوَّل كتاباتي باسمك فاقبل ذلك يا شقيقي العزيز اقرارًا بفضلك وتذكارًا من اخيك

جبرائيل

تاريخ الحرب السودانيَّة

المقدّمة

أمَّا بعدُ فاني بذلتُ الجهد في جمع هذا التاريخ ممَّا وصلتُ اليهِ بعد التحرّي من المصادر الصادقة والمؤلَّفات التي يُوثَق بروايتها وآليتُ على نفسي ان الزم فيهِ خطَّة الصدق في القول والنزاهة في المشرب والانصاف في الحكم والاخلاص في الرواية فان أصبتُ فذلك طبق المرام وان اخطأتُ فما خطائي عن قصدٍ وذلك عذري عند الكرام والسلام

الفصل الاوَّل

في استيلاء العائلة المحمَّديَّة العلويَّة على السودان

عادت شمس مصر فاشرقت بعد ان اعتراها الكسوف ازماناً وذلك بقيام رجلها العظيم السامي الادراك الكبير الهمَّة الماضي العزيمة القوي الارادة مؤسّس الاصلاحات العسكريَّة وواضع النظامات الاداريَّة في القطر المصري المغفور لهُ محمد علي باشا كبير العائلة المحمديَّة العلويَّة. وفي سنة ١٨١٩ ميلاديَّة بدا لهُ ان يوسّع تخوم مملكتهِ ويضمّ اليها ما جاورها من البلاد الجنوبيَّة وينفذ احكامهُ الى من بها من القبائل التي لم يستحكم انتظامها. والظاهر انهُ رغب في ذلك وأقدم على انجازهِ لاربعة اسباب الاوَّل توسيع الرزق لمناصريهِ من

الاتراك والارناؤوط الذين قهر بهم المماليك وحلَّ قوتهم . والثاني استئصال شأفة المماليك الذين لم تزل بقيتهم سائدة على دنقله في السودان . والثالث الاستيلاء على معدن الذهب في سنار الذي طارت اخباره الى جميع الاقطار وكثرت فيهِ الاقوال الموضوعة والقصص المصنوعة ولا سيما في مدينة القاهرة . والرابع امداد جيشهِ برجال من السودان وكان للسودانيين يومئذٍ شهرة وصيتٌ بعيد بالبأس والشجاعة

ولذلك لما سنحت لهُ الفرصة وجه الى السودان جيشًا جرَّارًا بحجَّة نجدة ولد عدلان وردهِ الى كرسي ملكهِ في سنار بعد تنزيلهِ عنهُ . وولَّى قيادة ذلك الجيش لابنهِ اسماعيل باشا فحمل بهِ على السودان وحارب المماليك في دنقله فهزمهم وبدَّد شملهم منها وامتلك نوبيا بعد انتصارهِ في كورتي في شهر نوفمبر سنة ١٨٢٠ ثم زحف على الخرطوم وحلَّ بجيشهِ في مركز حسن الموقع بين النيل الازرق والنيل الابيض وحصنهُ حتى صيَّرهُ مركزًا منيعًا . وبقي هناك الى سنة ١٨٢٢ ثم قفل راجعًا الى القاهرة وعاج في طريقهِ على شندي الواقعة بين الخرطوم وبربر ونزل عند حاكمها واسمهُ ملك النمر وطلب منهُ ان يدفع لهُ ملء قاربٍ ذهبًا والف عبدٍ من الارقاء . فاجابهُ ملك النمر الى ذلك ظاهرًا واضمر لهُ الشر باطنًا واحتال عليهِ فاسكر اركان حربهِ وحاشيتهُ وصبر عليهم حتى اخذتهم سنة النوم جميعًا . ثم امر عبيدهُ فاحاطوا المنزل بالهشيم من كل جانب واضرموا فيهِ النار فاحترق واكلت النار كلَّ من كان فيهِ واسماعيل باشا من الجملة . وظنَّ انهُ تخلَّص منهم بدهائهِ وحسن تدبيرهِ ولكن ما لبث ان رأى صهر الفقيد محمد بك دفتردار كردوفان قادمًا عليهِ بالخيل والرجل ففتك بهِ

وبقومهِ فتكًا ذريعًا واحرق شندي بالنار وذبح سكانها وتبَّت سيادة الحكومة المصرية على سنار وكردوفان.

وحكم محمد بك على السودان في ايامهِ وتلاهُ عثمان بك وكان عندهُ الاي من العسكر المنظَّم فاغلظ معاملة الاهالي واثقل يدهُ عليهم وصنع مدفعًا سمَّاهُ القاضي وكان اذا استأنف احدهم حكمهُ يربطهُ امام فم القاضي ويقول اقض يا قاضي للواقف امامك فيُطلِق المدفع حشوهُ فيكون القاضي على مَنْ امامهُ

وفي سنة ١٨٣٠ عُيِن خورشيد باشا حاكمًا للسودان فحكمها احدى عشرة سنة واستولى على فشوده وعلم اهل الخرطوم سقف البيوت بالآجرّ بدلاً من الجلد والقش. وبقي حكم مصر على السودان مشيَّد الاركان سالمًا من المنازعات الى ان اتَّقدت نيران ثورة كسالا سنة ١٨٤١ فتلافتها الحكومة المصريَّة بالحزم والتدبير واخمدتها قبل اواخر سنة ١٨٤٢

وفي خلال هذه المدَّة رُسِمت خارتة السودان وقُسِمت الى سبعة اقسام سُمِّيَت بالمديريَّات وهي فزغلو وسنار والخرطوم وتاكا وبربر ودنقله وكردوفان وتقلَّب على السودان حكام كثيرون من المصريين كان جلُّ اعمالهم مقتصرًا على اخماد الثورات المحليَّة وحفظ الراحة العموميَّة على حدود الحبشة. وفي سنة ١٨٦٥ كان نحو ثمانية آلاف جندي من العسكر السوداني معسكرين في تاكا فتمردوا على الحكومة وابوا الانقياد الى اوامرها فعانت الحكومة مشقَّات عظيمة في كبح جماحهم وردهم عن تمرُّدهم ثم ارجعت العساكر السودانيَّة الى مصر واقامت عساكر مصريَّة عوضًا عنهم. وفي سنة ١٨٦٦ تخلَّت الحكومة العثمانية عن سواكن ومصوّع للحكومة المصريَّة . وبعد ذلك بيسير زحفت الجنود المصريَّة

تحت قيادة السر صموئيل باكر على الاراضي المجاورة تمدّدت فتوحاتها في قلب أفريقية حتى بلغت البلاد الواقعة على عرض درجةٍ واحدةٍ شماليَّ خط الاستواء فاتَّسعت السودان حتى بلغت اطرافها تلك الحدود وظنُّوا ان ذلك احسن واسطة لمنع الاسترقاق وابطال التجارة بالرقيق . وتعيَّن السر صموئيل باكر حاكمًا عامًا على المقاطعات الاستوائية وبقي فيها الى سنة ١٨٧٣ ثم استعفى فقُبل استعفاؤهُ ومدح وليُّ عهد انكلترا الجنرال غوردون للحضرة الخديوية واشار بمناسبة تعيينهِ مكان السر صموئيل باكر فصدرت اوامرها بتعيينهِ

وكان الاتّجار بالرقيق قبل ذلك عامًّا لبلادِ السودان من اقصائها الى اقصائها حتى قال فيهِ غوردون باشا ما معناهُ "ان تجارة الرقيق في السودان ضاربة اعراقها في بدن الشعب حتى صارت منهم كالنقي من العظام والاسترقاق عند السوداني هو الحروف الهجائية التي تتألَّف منها معيشتهُ غنيًّا كان او فقيرًا فليس في السودان احدٌ خالي الغرض منهُ وليس فيهم من يحبُّ ابطالهُ ولا من يتفوَّه بادنى كلامٍ يشير الى ابطالهِ" هذا مع كون سبعة اثمان سكَّان المدن ارقَّاء يخدمون في البيوت او يُنظمون في سلك الجنود للهجوم والدفاع وقلَّما كانوا يتخذون للزراعة والفلاحة ولذلك كانت حالتهم احسن كثيرًا من حالة الارقَّاء في الهند الغربية . وعليهِ قال غوردون ان ابطال التجارة بالرقيق دفعة واحدة غير عدلٍ اذ كثيرون منهم يفضلون العبوديَّة على الحرّيَّة كما علم بالتجربة فانهُ حرَّر كثيرين من رقّ العبوديَّة فكانوا يرفضون الحرّيَّة من تلقاء انفسهم ولذلك لم يلتفت الى تحرير الارقَّاء بل وجَّه معظم عنايتهِ الى ابطال ما يجدُّ من الاسترقاق ومنع النخاسين من شن الاغارة على البلاد المجاورة للحدود

وسرقة العبيد منها

وكان يتنازع الامرة والسيادة في السودان عاملان قويان احدهما الحكومة المصرية وبيدهِ تجارة الصمغ والعاج وريش النعام والآخر المتاجرون بالرقيق من اعيان السودانيين ووجوههم وكان لعصباتهم من السطوة والنفوذ ما لا مثيل لهُ. ولمَّا كان معاشهم قائمًا بما لا يوافق الاحكام كانوا يقصدون الاماكن الخالية من الحكَّام والاحكام فيمتلكونها ويسكنونها. فتملكوا اولاً الاراضي الواقعة حوالي الخرطوم على مسافاتٍ قريبةٍ منهم ثم جعلوا يتملكون ما تاخمها من الاراضي حتى بلغت حدود مملكتهم الطريق المؤدّية الى درفور

وفي سنة ١٨٦٩ كان أشهر مركز لهم في شكا عند بحر الغزال وكانت الرياسة عليهم حينئذٍ لزبير باشا حيث بنى لنفسهِ قصرًا باذخًا كقصور الملوك يحرسهُ جماعة من الحرس والشرطة ويقيم على ابواب قاعاتهِ الاسود المقيدة بالسلاسل ويطوف في غرفهِ العبيد والخدم والحشم من الارقاء بالملابس الفاخرة والحلل الباهية ائتمارًا لاوامرهِ وخدمةً لضيوفهِ العديدين. وكان لهُ جيش منظَّم بالسلاح الكامل من النخاسين (باعة الرقيق) والمحنكين في اقتناص الرقيق يبعث بهم على القبائل فينقضُّون عليها كالنسور الخاطفة ويفاجئونها من حيث لا تدري فينهبون اموالها ويختطفون بنيها وبناتها ويسلبون انعامها ويعودون اليهِ بالغنائم والاسلاب حتى القوا الرعب في قلوب تلك القبائل وانتزفوا ثروتها وذهبوا براحتها وغادروا بلادها قاعًا صفصفًا باختطاف اهاليها ورحيل الباقين منها فرارًا من التعدي وطمعًا في الاطمئنان على حدّ قول من قال

رحِّل عن مكانٍ فيهِ ضيمٌ وخَلِّ الدارَ تنعي من بَناها

فإنَّكَ واجدٌ ارضًا بارضٍ   ونفسك لم تجد نفسًا سواها

ولشدَّة ما كان ينال اولئك الاسرى المنكودي الحظّ من عنف مختطفيهم وغلظتهم كانت قواهم تخور على الطريق فيتساقطون افواجًا افواجًا حتى تتغطّى الطرق بجماجمهم وعظامهم بعد اكل الوحش والطير لحومهم . والذين يصلون الى منازل زبير ينتخب اقواهم بدنًا واخفّهم حركةً واثبتهم جنانًا ويضمهم الى جيشهِ ليكونوا بين مختطفي الرقيق لهُ والباقون يسلمهم للنخاسين فيبيعونهم بيع الدواب. واشتهر زبير في السودان حتى بلغ صيتهُ اقاصي البلاد وصارت شكا بندر النخاسة (التجارة بالرقيق) يقصدها التجار من اطراف البلاد ويبتاعون الرقيق منها ويأتون بهم الى مصر على طريق النيل

وفي سنة ١٨٦٩ احسّ حضرة الخديوي السابق بتزايد سطوة زبير ونفوذ كلمتهِ في السودان ورأى ان تعاظم صولتهِ يؤدي الى وقوع القلاقل فبعث جيشًا من جنودهِ بحجة الاستيلاء على درفور ظاهرًا (وكانت درفور لا تزال مملكة مستقلّة) وبقصد اذلال زبير باطنًا دفعًا لمكروهٍ يقع منهُ . فلما بلغ زبير قدوم الجنود المصريَّة أَوجس منهُ خيفةً في نفسهِ وعلم ان وراء الاكمة ما وراءها فتأهَّب لملاقاتهم وركب في قومهِ وقاتلهم قتالاً شديدًا كان الفوز فيهِ لهُ ولقومهِ فقتل قائدهم ومزَّق شملهم كلَّ ممزَّق. ثم قدَّم اعذارهُ لاعتاب الحضرة الخديويَّة فقبلتها طبقًا لمقتضى الاحوال وسمَّتهُ حاكمًا على السودان. وفي سنة ١٨٧٥ وقع الخلاف بينهُ وبين سلطان درفور فزحف على بلادهِ وعضدتهُ الحكومة المصريَّة لاسبابٍ اقتضتها سياستها. فاستظهر زبير على سلطان درفور في كل مواقع القتال . ويُروَى عنهُ من النوادر الغريبة انهُ ظنَّ ان الرصاص لا يفعل ما

تفعلهُ الفضة في قتل الاعداءِ فصهر مئتين وخمسين الف ريال وصبها كرات وفرَّقها على قومهِ ليطلقوها ببنادقهم على العدو . واتفق ان بندقةً منها اصابت رأس سلطان درفور فقتلتهُ وذبح قوم زبير ابنيهِ بجانبهِ وغلبوا العدو غلبة تامَّة واخضعوا مملكتهُ للحكومة المصريَّة

ولما رأى زبير ان ذلك النصر قد تمَّ على يدهِ وان الحكومة المصريَّة انتفعت بخدمتهِ طلب منها ان تنعم عليهِ بلقب حاكم درفور مكافأةً لهُ على اتعابهِ فأبت ولكنها انعمت عليهِ بلقب باشا . ولذلك جمع اعوانهُ ومحالفيهِ تحت شجرة بين شكا والعبيد وتعاهدوا جميعًا على ان يكونوا يدًا واحدة ويلبوا طلبهُ عند مس الحاجة وجمع منهم حينئذٍ مئة الف جنيه واتى بها الى مصر القاهرة طمعًا بنوال طلبهِ من الحكومة . فلما اتى القاهرة لقيهُ كبار اهلها بالاكرام والبشاشة فاقام بينهم مدَّةً ثم اراد الخروج من القاهرة فلم يؤْذن لهُ في ذلك وعيَّنت لهُ الحكومة المصرية راتبًا شهريًّا لا يقلُّ عن مئة جنيه فبقي بها حتى وقعت في نفوس الانكليز منهُ خيفة وشبهات فقبضوا عليهِ فجأَةً وارسلوهُ تحت الحفظ الى جبل طارق منذ عهد غير بعيد

ورأَت الحكومة المصريَّة وجوب اخماد الثورة قبل شبوب نارها ووجوب اعانة الارقاء للتخلُّص من نير مسترقّيهم فعيَّنت غوردون باشا لتنفيذ اوامرها في السودان وقد سبقت الاشارة الى ذلك وكان غوردون يومئذٍ امير الاي . وقبل الشروع في الكلام عن اعمال غوردون نذكر طرفًا يسيرًا عن موقع بلاد السودان وعن سكانها ليكون القارئ على بصيرة في ما ياتي معنا من الوصف والتفصيل

الفصل الثاني

في جغرافية بلاد السودان وسكانها

قد يتوهَّم القارئ ان السودان اسمٌ لبلاد كل اسود وعليهِ تكون اسماً لكل ما وقع من قارة افريقية بين البحر الاحمر من جهةٍ والاوقيانوس الاتلنتيكي من أُخرى وهو وهمٌ لا صحَّة لهُ. والصحيح ان السودان اسمٌ لاراضٍ متَّسعة يحدُّها من الشمال برّ مصر ومن الجنوب بحيرتا نينزا ومن الشرق البحر الاحمر ومن الغرب حدود درفور وهيئَتها غير منتظمة ومقاطعاتها غير ثابتة الحدود بل هي كالجسم المرن تقبل اطرافهُ المط والامتداد تارةً والشمر والتقلُّص أُخرى. وهي تحتوي على صحارى نوبيا الواقعة جنوبيَّ الشلاَّل الاوَّل من جنادل النيل المشهورة ومساحة هذه الصحاري تبلغ ٥٣٠ الف ميلٍ مربَّع. وعلى اراضٍ أُخرى تبلغ مساحتها نحو ٥١٦ ألف ميل مربَّع وهي مديريَّتا كردوفان ودرفور غربًا وسنار وتاكا وسنحيت والمقاطعات التابعة لسواكن ومصوَّع شرقًا ومديريَّتا فشوده وبحر الغزال والمقاطعات الاستوائية جنوبًا. وكل هذه الاراضي تستقي ماءَها من نهرٍ واحد هو النيل الخارج من البحيرات المجاورة لخط الاستواء ولا بدع اذا عبدهُ المصريون القدماء لانهُ حياة بلادهم ولولاهُ لكانت اراضيهم صحاريَ رمليَّة لا تمتاز عن الصحاري الفسيحة التي على ضفتيهِ شرقًا وغربًا

وامهات مدن السودان مبنية على شواطئ النيل طبعًا . ومنها الخرطوم وموقعها عند ملتقى فرعَي النيل الابيض والازرق في وسط اراضي الحكومة المصرية. بناها محمد علي باشا وقد سبقت الاشارة الى ذلك بعدما قهر البدو سنة ١٨٢٠ ونظَّم العلاقات التجاريَّة فجعل الخرطوم مركزها ولم يمض الاَّ القليل حتى شُيّد فيها قصرُ الحاكم وثكنة (قشلة) لحاميتها من الجند وترسخانة . فاصبحت محورًا تدور عليه تجارة العاج والصمغ وريش النعام والحنطة والمواشي والرقيق . وكان في الخرطوم قبل قيام المهدي بين خمسين وستين الفًا من السكَّان نصفهم او اكثر من الارقَّاء. وبيوتها اعظم اتقانًا واحكامًا من بيوت باقي المدن في السودان وبعضها مبنيٌّ بالحجر . وكان فيها جماعة من الاجانب من مصريين وسوريين واروام واوربيين الاَّ ان الاوربيين كانوا يكثرون التنقُّل منها لعدم موافقة هوائها لهم ولا سيما في فصل الشتاء

ويتلو الخرطوم في الاهمية على طريق النيل الى مصر مدينة بربر وهي على بعد نحو مئتَي ميل من الخرطوم وعدد سكانها بين خمسة آلاف وعشرة آلاف وابنيتها من الطوب المجفَّف في الشمس كابنية غيرها من مدن السودان . وهي محطُّ تجار السودان ومنها يتشعَّب طريقان لقوافلهم احداها تؤدّي الى كورسكو مارَّة بابي حمد وابو حمد قرية حقيرة لم تكن لتُذكَر في التاريخ الاَّ لانهُ في سنة ١٨٢٠ قُتِلَ فيها نحو ٨٠٠ مقاتل من الباشبوزق بعد قتال عنيف بينهم وبين عرب البشرين . فطاردهم العرب مطاردة الظباء حتى ان الذي نجا منهم من السيف غرق في الشلاَّل فبادُوا عن بكرة ابيهم . والطريق الاخرى تؤدّي الى سواكن وهي اشهر مرافئ البلاد السودانية على شاطئ البحر الاحمر ومنها

يشحن اكثر الارقاء القادمين من داخلية البلاد وتبعد نحو ٢٨٠ ميلاً عن بربر. ويروى في خرافات القوم ان سواكن محرّفة عن سواجن وذلك لانهم يزعمون انهُ كان في قديم الزمان جزيرة في البحر الاحمر يقطنها سبع عذارى فجاءها يوماً جماعة من الصيّادين فوجدوا العذارى حوامل فقالوا انهنّ حملنَ من الجن ثم ولدنَ الاولاد فسجوا الى البر واسموا سواكن وكانوا اوّل مَنْ سكنها. ومدخل مينا سواكن ضيق طويل بقربهِ صخور مستدقّة متفرّقة فيعسر على ربّان السفن المسير بينها. وابنيتها من صخور المرجان الابيض وهي مبنية على جزيرة متصلة بالبر برصيف بناهُ غوردون لمّا كان حاكماً في السودان وعدد سكّانها نحو ثمانية آلاف

ومن مدن السودان دنقلة القديمة وهي على مسافة ٢٠٠ ميل الى جانب الشمال الغربي من بربر وقد امسى نصفها خراباً وامّا دنقلة الجديدة فعلى مسافة خمسين او ستين ميلاً من القديمة والى الشمال منها وهي مبنية على ضفة النيل الشرقية ويسمّيها العرب بالعرضي

ومنها كسالا وهي اكبر مدينة في السودان الاّ الخرطوم وعدد سكّانها نحو الخمسة عشر الفاً وهي مبنيّة على تلّ بين الخرطوم ومُصَوّع. ويكثر في ضواحيها الضباع حتى قيل ان ضباعها تنقيها من الاوخام كالكلاب في الاستانة العلية

ومن مدنها ايضاً الأُبيّض وهي قاعدة كردوفان ويبلغ عدد سكانها نحو ١٠ الف نفس وكان فيها سلك برقي يوصلها بالخرطوم والقاهرة

واصل سكان السودان من شعوب مختلفة فأَصل بعضهم افريقي نوبي.

وأصل آخرين من العرب الذين قاموا من الحجاز في سالف الازمان ونزلوا في السودان ولا يشبهون النوبيين الّا في لون البشرة وهم طوال القامة حسان الوجوه مشهورون بالشجاعة والمروءة وعزة النفس منقسمون الى قبائل شتّى متفرّقة في انحاء البلاد يفخرون بحسبهم ونسبهم ولذلك ندر اختلاطهم بمن حولهم من القبائل. ولم يزالوا في اوصافهم على ما كانت عليهِ العرب ايّام عزّها وسطوتها من شدّة الحميّة والانفة ومضاء العزيمة والصبر على المكاره . قال بعض كتّاب الانكليز الذين ذاقوا مرّ اسنّتهم وشهدوا حربهم وطعانهم بعدما اطنب بمدحهم ما معناهُ " هم قوم كالاسود لا يقعدون عن حرب ولا يتربّصون لدفاع بل يهاجمون عدوّهم ابدًا ويقتحمون صفوفهُ بصدورهم وينقضّون عليهِ كالنسور مجتمعين معًا في زمانٍ لا يعلمهُ احدٌ ومن مكانٍ لا يدري بهِ احدٌ فيلقون الرعب والمهابة في صدور رجالهِ ويعربسونهُ لانبغاتهِ وتضعضع احوالهِ وهيهات ان يوليك اعرابيٌّ ظهرهُ في ساحة القتال ولو سدّدت الى صدرهِ الوف البنادق والنبال "

الفصل الثالث

في ملخّص ترجمة غوردون

وُلد شارلس غوردون في مدينة ولِوتش ببلاد الانكليز سنة ١٨٣٣ ميلادية وانتظم في سلك العسكرية سنة ١٨٥٢ بعد ان استعدّ لها واجاد دروسها في مدارس الانكليز. وكان ميالاً بالطبع الى لقاء الاهوال والصبر على الكريهة ولعلّهُ اكتسب ذلك بالارث من آبائهِ واجدادهِ فان ابا جدّهِ

اشتهر بالشجاعة والبأس في الحروب السكوتلاندية وجدّه شهد المواقع العظيمة وركب الاخطار الهائلة وابوه كان ضابطاً في الطوبجية الانكليزية وارتقى فيها الى رتبة فريق . وهو شهد حصار سبستابول سنة ١٨٥٥ وفعل فعالاً عظيمة شهد له بها كبير قادة الفرقة التي كان فيها . وفي سنة ١٨٦٠ سافر الى الصين ووافع فيها وقائع تشهد بشجاعتهِ وبراعتهِ وتفننهِ في الحركات العسكرية وتوجيهها لقضاء الغرض المطلوب . وبقي في الصين يتحمل المشاق ويتجرّع الغصص الى سنة ١٨٦٥ ثم عاد الى انكلترا وقد ارتقى الى رتبة اميرالاي في الجيش الانكليزي ولُقِب سارِي عسكر من قِبَل سلطان الصين

وفي سنة ١٨٧٢ عُيّن حكمدارًا للمقاطعات الاستوائية في افريقية كما سبق الكلام عليهِ وفي سنة ١٨٧٦ تنحَّى عنها بعد ان اتمَّ فيها ما اتمَّ من الاصلاحات وفي سنة ١٨٧٩ عُيِن حاكمًا عامًا على السودان ودرفور والمقاطعات الاستوائية . فلمَّا وصل اليها وجدها خالية من العساكر المصريَّة لانَّ من كان فيها من العساكر أُرسل مددًا للدولة العلية في حربها مع الروس . ولذلك انتشبت نيران الثورة في درفور وجعل الزبير يحيي وطيسها برسائلهِ التي كان يحرّض حلفاءهُ فيها على شق عصا الطاعة وخراب ما يبنيهِ غوردون حتى بلغ عدد الثائرين اكثر من عشرة آلاف مقاتل ولم يكن عند غوردون الاَّ شرذمةٌ صغيرة من العساكر المصرية لما تقدَّم . فاقام في الخرطوم شهرًا فيهِ اصلح دوائر الحكومة اصلاحًا عظيمًا وابطل الضرب بالسياط ومنع قبول الرشوة . ثم امتطى ناقتهُ وجعل يقطع الصحاري والقفار حتى وصل الى درفور فدخل محلَّة العصاة وحدهُ وترك من معهُ من الاتباع والخدم والحَرَس على مسافةٍ من المحلَّة .

ولما دخل على القوم وجد نحو ثلاثة آلاف عبد تحت السلاح عدا الامراء والكبراء فخاطب رؤساءهم وطلب منهم التسليم وهو يمزج الكلام اللين بالقاسي ويقرن الملاطفة بالتهديد فلم يخرج من بينهم الا وقد سلموا واطاعوا وفي مقدمتهم سليمان ابن زبير فسماهُ غوردون حاكماً على بحر الغزال

ثم رجع غوردون الى الخرطوم واقام فيها زمناً قصيراً وتوجه منها الى بربر فدنقلة وبلغهُ في دنقلة ان الحبشة يهاجمون سنار فعاد الى الخرطوم حيث اتضح كذب تلك الاشاعة ثم ذهب الى بوغوس يصلح بين الاهالي وعاد بعد ذلك الى الخرطوم فاتاهُ امر بالتلغراف ان احضر الى القاهرة للمداولة في امور مهمة تختص بمالية السودان. فتوجه الى القاهرة بعد ان قضى حولاً حاكماً في السودان وبقي في القاهرة نحواً من شهر ثم عاد الى الخرطوم ماراً بسواكن فبربر وبقي بضعة اشهر في تعديل مالية البلاد

هذا وان من يقرأ تفصيل ما ذكرنا ملخصهُ من اعمال غوردون واسفاره والاخطار التي اقتحمها يتبادر الى ذهنهِ انهُ كان رجلاً طويل القامة عريض الكتفين كبير العضل قوي البدن عبوس الوجه عليهِ مهابة تستوقف السائر وتسكن الثائر وتمد ظلال الامن في البلاد وتمكن سطوته على السودان والواقع بخلاف ذلك فانهُ كان رجلاً قصير القامة نحيل الجسم ضئيل الوجه ولكن لوائح النباهة والفكر تلوح على وجههِ

وانتهز سليمان بن زبير فرصة اشتغال غوردون بتحسين دوائر الحكومة في الخرطوم وانهماكهِ بامر مالية البلاد فاحتشد خمسة آلاف مقاتل من حلفاء والدهِ وشق عصا الطاعة وجاهر بعصيان الحكومة فوجه عليهِ غوردون

بعض رجالهِ بالجنود فحاربهُ محاربةً عنيفة وانتصر عليهِ وقتلهُ ووجدوا معهُ رسائل عديدة من زبير والدهِ تدل على مداخلتهِ واشتراكهِ في تلك الثورة ولذلك حكم عليهِ بالاعدام ولكن عُفي عنهُ وبقي رزقهُ يجري عليهِ من الحكومة.

واستتبّت الراحة في السودان بعد ذلك وصرف غوردون همهُ الى منع النخاسة وابطال الاسترقاق حتى جلس سمو الخديوي الحالي توفيق باشا على اريكة الخديوية وبارح الخديويّ السابق الديار المصرية فاسرع الى القاهرة فامرتهُ الحضرة الخديوية بالتوجُّه الى الحبشة لقضاء بعض المهام الخصوصية فامتثل امرها وبعد اتمام تلك المهام عاد الى بلاد الانكليز

ولما تعين لُرد ريبون حاكمًا على الهند استصحب غوردون كاتمًا لاسرارهِ وفوَّضت الحكومة الصينية اليهِ حينئذٍ ان يسوّي خلافًا وقع بينها وبين الحكومة الروسية فسوّى الخلاف على غاية ما يُرام بطريق الحب والسلام ثم ارسلتهُ الحكومة الانكليزية الى رأس الرجاء الصالح في بعض المهام الخصوصيّة ثم عاد الى بلاد الانكليز ومنها سافر الى بر الشام حيث بقي في اورشليم ونواحيها سنة كاملة منقطعًا عن امور الدنيا الى العبادة والاهتمام بامور الآخرة

الفصلُ الرابع

في حكم رؤُوف باشا على السودان وقيام المهدي

ان العاقل المنصف يقرُّ بان غوردون اقرَّ السودان على نظامٍ حسن تُعامل الاهالي بهِ بالعدل فينال صاحب الحق حقهُ ويعاقب المعتدي بما استحقهُ. وما اجراهُ في السودان من منع النخاسة وابطال الاسترقاق مأثرة

تُشكر اذا نظرنا اليهِ من حيث حب الانسانيَّة ورفع شأن البشريَّة واما اذا اعتبرناهُ من حيث موافقتهُ لصالح الحكومة واستتباب الراحة والهدوّ لم يسعنا الاَّ ان نحكم بانهُ جرى على سوء تدبيرٍ وعدم مراعاةٍ للاحوال والظروف وقلَّة نظرٍ في العواقب. فان النخاسة مهنة قديمة في السودان يتعيَّش بها الجم الغفير من اعظم اهلها جاهًا ونفوذًا والاسترقاق وبيع الرقيق غير محرَّمين في شريعة اهلها. فلما حكمها غوردون أصدر الاوامر الصارمة بابطالها دفعةً واحدة وشدَّد على انفاذ اوامرهِ التشديد الزائد حتى عاقب كثيرين سجنًا وقتلاً وغير ذلك من ضروب المعاقبة. ولا يخفى ان كلَّ عادة تمكَّنت في بلادٍ لا تُقلَع منها دفعةً واحدةً من غير مقاومة ونفور وهياج ممَّن تمكَّنت فيهم طبقًا لما فُطِرت عليهِ الطباع من الارتياح الى القديم المألوف والنفور من الجديد غير المألوف ولو لم يكن بذلك صالح فكيف ومعظم الصالح متوقّفٌ عليهِ. ولهذا لم تخلُ سياسة غوردون في السودان من محلٍّ للانتقاد والملام ولا يسع المنصف ان يُنكِر انها آلت من قبيل منع النخاسة الى ابتعاد قلوب الاهالي عن الحكومة المصريَّة ونفورهم منها ووَجْدهم عليها

وممَّا زاد الطين بلَّةً انهُ بعد سفر غوردون من السودان على ما سبق من الكلام لم يتلافَ ذلك الخلل بما يسدُّ الخرق ويجمع القلوب بل عاد الباشبوزق الى البلاد فعاثوا فيها على ما هو معهود منهم وفُوِّض اليهم جمع الخراج من الاهالي بعد ما أُثقلت الضرائب على عاتقهم فكان اذا تأخَّر احدهم عن دفع ما عليهِ يعمل الباشبوزق فيهِ السياط ويسيئون اليهِ المعاملة حتى سئمت نفس الفلاح فترك ارضهُ قفرًا بورًا وعمد الى تحصيل معيشتهِ بالسرقة

والسلب وبيع الرقيق خفية . ولذلك كلهِ اشتدَّ نفور الاهلين من الحكومة وتمكَّن الحقد والوجد في قلوبهم عليها وصاروا يتوقَّعون بابًا للفرج او مناصًا يمكّنهم من شق عصا طاعتها

ثم بعد ذلك ثار عرابي وحزبهُ ثورتهم المعروفة التي جرَّت معها من البلايا والنكبات على مصر ما هو معروف . فتضعضعت احوال الحكومة وضعفت قوتها في السودان وعجز اصحاب الامر والنهي هناك عن حفظ الأَمن والراحة وامتلاك عنان الاهالي على ما كان لهم من قبلُ . وقد تقدَّم ان الاهالي استثقلوا وطأَة الحكومة عليهم من جرى تصرُّف بعض مأموريها فكانوا يتذمَّرون ويتضجَّرون فيضطرون الحكومة الى زيادة القوَّة الحامية تداركًا لمكروه يبدو منهم وبازدياد القوَّة الحامية تزداد النفقات وبازدياد النفقات تزداد الضرائب وبازدياد الضرائب يزداد نفور الشعب وتظلُّمهم . ولذلك كانت السودان تزيد انحطاطًا واحوالها تزيد ارتباكًا من يومٍ الى آخر حتى اذا وجدت سبيلاً للثورة والتخلُّص من ورطتها ثارت واستسهلت شق عصا الطاعة . هذه هي الدواعي التي دعت الى الثورة السودانيَّة فيما نراهُ . والذي يتأَمَّل اقوال الخبيرين باحوالها العارفين بمجرى امورها وافكار اهاليها يعلم ان الاسباب التي ذكرناها هي التي امالت وجوه البلاد ونبهاءها الى اجابة دعوة المهدي والاخذ بناصرهِ لا الاعتقاد بصدق دعوتهِ او الرغبة في تأْييد مهدويتهِ

اما المهدي بل المتمهدي واسمهُ محمد احمد فقد قال بعضهم انهُ وُلد في قرية الخَناق المجاورة الشلال الثالث وذلك سنة ١٨٤٣ ميلادية وقال آخرون انهُ وُلد في جزيرةٍ صغيرةٍ على مسافة خمسين ميلاً من العرضي (دنقلة) وكان ربعةً

بين الرجال رقيق البدن شديد البنية اسمر اللون قاتمهُ اسود اللحية مشرَّط الوجنتين على كل وجنةٍ ثلث شرائط حفظ القرآن الشريف وهو ابن اثنتي عشرة سنة . ثم اراد عمهُ ان يعلمهُ حرفتهُ وهي بناء المراكب وكان ساكنًا بالقرب من سنَّار . فضربهُ ذات يوم ففرَّ من عندهِ والى الخرطوم حيث تعلَّم القراءة والكتابة وقرأً يسيرًا من الفقه على بعض المشايخ . ثم سار الى بربر لتكملة درس الفقه فدرس على الشيخ نور الدايم في بلدة صغيرة هناك فصار شيخًا . وانتقل الى جزيرة صغيرة تسمَّى ابا الى الجنوب من الخرطوم وعلى مسافة اربعة ايام منها فمكث فيها خمس عشرة سنة منقطعًا الى الزُّهد والتعبُّد ومطالعة الكتب الدينيَّة فانتشر صيتهُ في تلك النواحي بالطُّهر والقداسة وتقاطر عليهِ الطلبة من كل فجٍ لتلقّي المعارف عنهُ . وتزوَّج بعدَّة من بنات المشايخ ذوي الجاه والنفوذ بين القبائل ممَّا يدلُّ على رغبتهِ في اشتداد ازرهِ وتعزيز نجدتهِ وعزوتهِ لمطامع في نفسهِ ظهرت منهُ في اواخر عمرهِ . ولاعتقاد الناس بطهارتهِ سمَّوهُ شيخ طريقة القبلان من دراويش تلك الاصقاع .

ولما بلغ مدير فشوده ان محمد احمد وفرت ثروتهُ وعلت منزلتهُ ارسل يطلب منهُ مبلغًا عظيمًا من المال مدعيًا أنهُ يطلبهُ اعانةً المديريَّة فابى دفع المال فكتب اليهِ المدير يتهدَّدهُ بانهُ اذا تمنَّع عن اجابة امرهِ احضرهُ الى فشوده مقيَّدًا بالسلاسل وارسل العساكر لتنفيذ ما هدَّدهُ بهِ . فلما بلغوا جزيرة ابا لقيهم محمد احمد بمن معهُ من التلامذة والانصار وفتك بهم فتكًا ذريعًا فتفرقوا ايدي سبا . فانتشر خبر ذلك في البلاد المجاورة وطنطن بهِ مَنْ شكا من ثقل الضرائب وجعلوا لهُ رنَّةً عظيمة . فكبرت نفس محمد احمد وانتهز تلك الفرصة

فاخذ يكتب الى صحبهِ وخلاَّنهِ من الدراويش والفقهاء في اواخر شهر مايو (ايار) سنة ١٨٨١ انهُ هو المهدي العتيد ان يجيء سنة ١٨٨٣ . وانهُ سيحكم بالعدالة والانصاف في الدنيا ويقيم قائمة الاسلام ويطهّر الدين ممَّا شابهُ بتهامل المسلمين ويقتل مَنْ عصى امرهُ ولم يسلّم بدعوتهِ مسلمًا كان او مسيحيًا او يهوديًا . وفي شهر رمضان الموافق لشهر اغسطس (آب) سنة ١٨٨١ جاهر بدعواهُ هذه فتبعهُ الوف من اهل السودان

ولمَّا بلغ رؤُوف باشا ما كان من امرهِ ارسل اليهِ احد بطانتهِ واسمهُ ابو السعود يطلبهُ الى الخرطوم . فلمَّا اتاهُ الرسول سأَلهُ ما غايتك من دعواك هذه فاجابهُ محمد احمد اني رسول من الله وانا هو المهدي الموعود بهِ . فقال الرسول ان كنتَ كما تدَّعي فلماذا تعصى الحكومة وانت تعلم انها حكومة اسلامية جابهُ انها ليست كما تقول ولو كانت اسلامية حقيقةً لما ضربت الخراج والضرائب على رقاب المسلمين. فقال ابو السعود اني انصح لك ان لا تتصدَّى لمقاومة الحكومة والاَّ فتكت بك عساكرها فاجاب ان بنادق العساكر لا تضرُّ بي ولا باتباعي اذا وُجّهت الينا ومدافعهم اذا جاءوا بها على متون البواخر غاصت بهم الى قعر النيل من نفسها فعاد ابو السعود الى رؤُوف باشا وقصَّ عليهِ ما رآهُ وسمعهُ

فارسل رؤُوف باشا لمقاتلة المهدي ثلاث مئة عسكري ومدفعًا واحدًا في باخرتين وعيَّن عليهم ثلاثة ضباط قوَّادًا . فاختلف هؤُلاء الثلثة على الطريق في مَن تكون لهُ القيادة ثم فيما اذا كانوا ينزلون على جزيرة ابا ليلاً او نهارًا . وفي صبيحة اليوم الحادي عشر من شهر اوغسطس (آب) نزل احدهم

الى البر في قسم من العساكر ولما قرب من البلد نظر رجلاً يحيط بهِ جماعة من الناس فظنهُ المهدي فهجم عليهِ ولما وصل اليهِ سالهُ سؤالاً ولم ينتظر الجواب بل اطلق عليهِ عياراً نارياً فقتلهُ في الحال ولم يكن الرجل من اتباع المهدي. وبينما هو وجنودهُ على تلك الحال اذا المهدي واتباعهُ قد دهموهم واعملوا فيهم السلاح فلما راهم الجنود ابوا القتال فقتل منهم المهدي نحو مئة وثلاثين رجلاً وترك الباقون سلاحهم واركنوا الى الفرار. ولما رأى ذلك من بقي في الباخرتين وقع الرعب في قلوبهم ولم يجسروا ان يطلقوا مدفعاً واحداً بدعوى انهم اضاعوا البارود والذخائر. واخيراً اطلقوا مدفعاً في الهواء وفرَّ المهدي ومن معهُ ولم يلحقهم اذًى. وعاد من بقي من الجنود الى الخرطوم

وازداد اتباع المهدي على اثر هذه الموقعة وتكاثروا وذاع صيتهُ وبَعُدَ في نواحي السودان فأُرسل محمد سعيد باشا مدير كردوفان لاقتفاء اثرهِ بجيش عظيم وكان المهدي قد التجأَ الى جبل الغدير في الشمال الغربي من فشوده واستنجد باهل تلك الجهات وهم قوم كالذئاب الكاسرة يقاتلون قتال الاسود حتى تعذَّر على محمد علي باشا اخضاعهم يوم فتح كردوفان. ولم يطل الامر على محمد سعيد باشا حتى عاد الى مديريتهِ بدعوى ان ارتفاع النيل لم يمكّنهُ من اقتفاء اثر المهدي. ثم جمع راشد بك مدير فشوده (وهو كردي الاصل) نحو اربعماية مقاتل نظامي والفاً من الشلوك (وهم قبيلة من قبائل السودان السود) وقصد جبل الغدير. فلقي المهدي بعد مسير اربعة عشر يوماً وحدثت بينهما معركة دموية هائلة انجلت عن قتل راشد بك واكثر عساكرهِ النظاميين وجانب عظيم من الشلوك. فكسب المهدي منهم عدداً من بنادق رامنتون

وما كان معهم من الذخائر . وفي خلال ذلك كانت نيران الفتنة قد شبّت في كل انحاء السودان والدراويش يطوفون بين قبائل العرب يحثونهم على الحرب والقتال في سبيل الله وسرى داء العصيان الى قبيلة الكبابيش في شمالي كردوفان والبشري بين سواكن و بربر وغيرهما من القبائل المجاورة حتى تصل الى البحر الابيض . وما زالت اخبار الثورة تتوارد على رؤوف باشا من كل ناحية وهو مقيم في الخرطوم حتى صدرت اليه الاوامر في اوائل سنة ١٨٨٢ بان يرجع من السودان الى مصر فرجع قبل ان يباشر عملاً لاخماد تلك الفتنة

الفصل الخامس

في حكم عبد القادر باشا على السودان

وتعيّن عبد القادر باشا حاكمًا على السودان بعد رؤوف باشا فامر حالاً بتجهيز جيش لاخضاع المهديّ . فجمع ثلاثة عشر بلوكًا من الجيش المنظّم واكثرهم من كردوفان ودرفور والفًا وخمسماية مقاتلٍ من غير المنظّم من قبائل العرب المقيمة في دنقلة وقدّم عليهم يوسف باشا وهو دنقلي الاصل فتوجّهوا الى جبل الغدير حيث كان المهديّ ملتجئًا ولكنهم لم يبعدوا عن الخرطوم الّا القليل حتى فرّ منهم خمسماية دنقليّ وانحازوا الى المهديّ

وفي اوائل ابريل (نيسان) بعث حسين بك شكري مدير سنار رسالةً برقيّةً الى الخرطوم يقول فيها ان شرذمةً من العصاة يتقدّمها احد اقارب المهدي قد قامت على سنّار وجاهرت بالعدوان ولذلك يسترخص في مهاجمتها . فرُخّص له في ذلك فخرج في حامية سنّار في صبيحة اليوم السابع من شهر ابريل

وهجم على العدوّ فصدَّهُ العدوُّ وردَّهُ الى المدينة خاسرًا وتأثرهُ الى المدينة واثخن في اهلها وقتل عددا غفيرًا من التجار ومئة جندي من الحامية. فتمنَّع العساكر في الثكن (القشلاقات) وصعدوا الى السطوح واطلقوا على العدوّ نارًا شديدة حتى اخرجوهم من المدينة كرهًا. وعجز العدو عن امتلاك ديوان التلغراف اولاً فكانت تفاصيل الواقعة تُرسَل الى الخرطوم توًّا ثم تمكن منهُ فكسَّر البطريات وقطع الاسلاك فانقطع الاتصال وظنَّ اهل الخرطوم ان سنَّار سقطت بيد العدو. وشاع ذلك الظن في اطراف البلاد فاشتدت عزائم المهدويين وزاد عددهم حتى قيل ان الذين حاصروا سنَّار بلغ عددهم اربعين الفًا. واما سنَّار فبقيت سبعة ايام في الحصار

وكان ذلك كلهُ قبل وصول عبد القادر باشا الى الخرطوم وكان نائبهُ حينئذٍ جكلار باشا فلما علم ما كان من امر سنَّار وجَّه اليها نحو اربعماية رجل في الحال وقدَّم عليهم السنجق صالح آغا. واما هو فتخلَّف عنهم الى اليوم الخامس عشر من ابريل ثم تبعهم في باخرتين نقلَّان مئتي جنديٍّ من حامية الخرطوم. وأحسَّ الاجانب الذين كانوا في الخرطوم بدنوّ الخطر فحصَّنوا دار المرسلين الكاثوليكيين وتمنَّعوا فيها

وكانت نيران الحرب قد شبَّت في كوردوفان واللصوص قد انتشرت في تلك النواحي وكثر تعدّيها على السابلة واسلاك التلغراف قد انقطعت في سبعة اماكن بين الخرطوم والعبيد واهل العبيد استعدُّوا للحصار والثورة امتدَّت الى كل جهات دارفور حتى انقطعت العلاقة بينها وبين باقي بلاد الحكومة ولم تزل كذلك الى يومنا هذا

وفي خلال ذلك ادَّعى رجل يُسمَّى محمد طاها انهُ وزير المهديّ واصطنع لنفسهِ عصبةً واقام في قريةٍ صغيرة بالقرب من ابي حرس على مسافة ساعتين من ضفة البحر الازرق. فلما وصل جكلار باشا بباخرتيهِ الى هناك عرض عليهِ التسليم والاستئمان فأبى فارسل عليهِ السنجق يوسف الملك بخمسين مقاتلاً من الشائقيَّة ومئةٍ من الجنود المنظمة فلقيهم الاعداء بالرماح والسيوف وقاتلوهم مستقتلين حتى قتلوهم جميعًا وكان نساؤُهم وبناتهم يتقدمنَهم في وسط الموقعة ويقحمنَ العساكر المصرية بصدورهنَّ ويمزّقنَ الرجال باسنانهنَّ. ولذلك اضطرَّ جكلار باشا ان يعود الى ابي حرس ويطلب النجدة. وفي اليوم الرابع من شهر مايو (ايار) اجتمع عدد وافرٌ من الشائقيَّة وهجموا على محمد طاها ولكنهم عادوا مخذولين بعدما قُتِل جميع ضباطهم وكثيرون منهم وغنم العدوّ مدفعهم منهم

واَمَّا السنجق صالح آغا فما زال يقطع الصحاري ويجدُّ المسير حتى وصل الى سنار فلما رآهُ الاعداء المقيمون على حصارها سألوهُ عن قصدهِ ومرادهِ فكتم امرهُ عنهم وطاولهم حتى تحصَّن في مركز منيع على ضفَّة النيل. ثم صفَّ رجالهُ الشايقية على شكل قلعةٍ واطلق نارًا قويَّة على العدوّ فانتشب القتال بين الفريقين واستمرَّ من الصباح الى العصر فهلك من العدوّ خلقٌ كثير وولَّوا الادبار من وجه السنجق ورجالهِ فارتفع الحصار عن سنار. وكان اهالي سنَّار قد ظنُّوا في بادئِ الامر ان السنجق ورجالهُ اعداءٌ فاطلقوا عليهم بعض العيارات النارية ولكنهم لمَّا تحققوا انهم اعوان آتون لخلاصهم فتحوا لهم الابواب وترامَوا على قدمَي صالح آغا يقبلونهما شكرًا لهُ وامتنانًا على ما ابداهُ من الشجاعة

والغيرة والاستماتة لاجل خلاصهم

وما زال جكلار باشا قَلِقًا مضطربًا في ابي حرس حتى جاءتهُ نجدة قويَّة مؤلفة من ستة بلوكات من عساكر القلابات المنظمة والفين وخمساية مقاتل عربي من قبيلة الشكرية يتقدمهم مشايخ قبيلتهم بخوذ الفولاذ على رؤوسهم واثواب الزرد على ابدانهم والبيض الصقيلة مسلولة باياديهم اليمنى والتروس باليسرى وتحتهم الخيول العربيَّة المطهَّمة كانهم عرب الجاهليَّة يحاربون في البيداء او المسلمون في واقعة كربلا . فلما طابت بهم نفس جكلار باشا اتفق مع عوض الكريم وهو اميرهم على ان يهاجموا العدو في السادس من شهر مايو . وفي مساء ذلك اليوم اصطفَّت العساكر استعدادًا للقتال وجعل عوض الكريم يحثُّهم على الصبر والثبات ويوصيهم بالشجاعة ويَعِدُ الشايقية بالسلب والغنيمة وقد تهلَّل وجههُ بقدوم ساعة النزال وهو مع ذلك شيخ قد جلَّل الشيب عارضهُ

وكانت قرية العدو على البر الايمن من البحر الازرق وبينها وبينهُ غابةٌ من الشجر وعلى البر الايسر تجاه الغابة زريبة صغيرة اقامت فيها فرقة من الجيش تحت قيادة السنجق عثمان آغا لتصد العدوّ عن الفرار من مخاضة للنهر بالقرب من ذلك المكان . ثم اصطفَّت عساكر القلاَّبات المنظمة امام القرية حذاء النيل وصفَّ عوض الكريم رجالهُ من فرسان ومشاة وراء العساكر . ونادى في العساكر ان كل من ولَّى للعدوّ ظهرهُ منهم خوفًا وجبنًا وجَّه اليهِ رماح رجالهِ فاوردوهُ حتفهُ قبل ان ينجو بنفسهِ . ثم حمل عليهم محمد طاها في مقدمة قومهِ وكان الدراويش يحيطون بهِ مئات ففتكت بهم بنادق العساكر فتكًا ذريعًا واجلتهم عنهُ ثلاث دفعات متوالية ولكنهُ كان لا يتعرَّض

للرصاص الاَّ احاط بهِ دراويش آخرون ودفعوا عنهُ بانفسهم حتى زهقت نفوس العساكر وظنوهُ محفوظًا بالحجب والتمائم ولولا خوفهم من اسنَّة العرب وراءهم لولّوا الادبار وهمًا

وتراكمت القتلى حول محمد طاها حتى صارت كالربى فعاج بحصانهِ يريد التخلُّص من بينها فاصابتهُ رصاصة في رأسهِ فقضت عليهِ. وكان الشايقية عطاشًا لدماء طاها وقومهِ اخذًا بثارهم منهم فهجموا عليهم هجمة الاسود ومزَّقوهم كلَّ ممزَّق وقتلوا النساء والاطفال وكل من وصلت اليهِ يدهم فلم يبقوا ولم يذروا. وافرغ جكلار باشا جهدهُ في تخليص النساء والاطفال ففاز بتخليص امرأة محمد طاها وابنهِ فهرَّبهما الى باخرتهِ بعد معاناة المشاقّ العظيمة. وكانت القتلى والمجاريح قد تجمعت في خصاص القش فاضرموا فيها النار فصارت رمادًا وحمًا هي ومَنْ فيها. وعبر بعض العصاة في مخاضة النهر فقابلهم عثمان آغا وقتل منهم نحو ثمانمئة نفس. واما جثة محمد طاها فاحضروها الى جكلار باشا محملةً على جمل وفرسان العرب حولها يهلّلون ويكبّرون ثم قطعوا رأسها وطافوا بهِ البلدان المجاورة الى ان وصلوا بهِ الى الخرطوم فعلقوهُ في شارع المدينة

وكان سلاح العصاة في هذه الواقعة والتي قبلها مقصورًا على الرمح والسيف ونحوهما من السلاح القديم لان دراويشهم حرموا عليهم الاسلحة النارية بدعوى انها اسلحة الكافرين. ولكن لما كسبوا عددًا وافرًا من بنادق رامنتون وغيرها من العساكر المصرية لم يمانعهم الدراويش عن استعمالها فاباحوا ما كان قد حرموهُ

وتقدم جكلار باشا بعد هذا الانتصار الى سنار فوجد ان صالح آغا قد رفع عنها الحصار الاَّ ان العصاة لم يزالوا باقين في تلك المديرية فارسل من

كان معهُ من الرجال فذبحوا اميرهم وقتلوا كثيرين منهم

وفي اليوم الثاني عشر من شهر مايو وصل عبد القادر باشا الى الخرطوم فجمع العساكر وارسلهم الى كوردوفان تحت قيادة راشد باشا لمقاتلة قبيلة الحسنية الذين عصوا الحكومة وجعلوا ينهبون القافلة والسابلة. واهتمَّ باحتشاد جيش غير منظَّم من اهل دنقلة والشايقية واعدادهم في الخرطوم للمحاربة. فبلغهُ حينئذٍ خبر الثورة العرابيَّة في القطر المصري ثم فاجاءهُ خبرٌ آخر وهو ان العدوَّ غلب جيش يوسف باشا في جبل الغدير فشتَّت شملهُ ومزَّق اعلامهُ ولم يُبقِ على غير القليل منهُ

ثم زحف المهدي على الخرطوم ونزل على العبيد في سبتمبر سنة ١٨٨٢ بستين الف مقاتل وكانت حاميتها لا تقل عن ستة آلاف بالاسلحة التامَّة واثني عشر مدفعًا. وفي اليوم الثامن من سبتمبر سنة ١٨٨٢ هجم قوم المهدي غير مبالين بنيران المدافع والبنادق التي شوتهم شيًا وما زالوا حتى فتحوا ابواب المدينة عنوةً والتحموا مع الحامية فدار القتال بينهم يدًا ليدٍ فامر اسكندر بك قائد الحامية باطلاق النار على جمهورهم فأُطلقت عليهم نارٌ دائمة عنيفة حتى خرجوا من البلدة كرهًا بعد ما قُتل منهم عدد عديد ومن الحامية عدد ليس بقليل . ثم عادوا فهاجموا المدينة دفعتين متواليتين رجعوا فيهما مخذولين حتى بلغ عدد قتلاهم خمسة عشر الفًا على ما قيل. فضعفت قوة المهدي وارتخت عزائمهُ ولكنهُ تمكن من جمع الباقين ومحاصرة العبيد حصارًا تامًّا

فوجَّه عبد القادر باشا عنايتهُ الى تحصين الخرطوم خوفًا من هجوم العدو عليها ففتح ترعةً بين البحر الازرق والابيض حتى صارت الخرطوم جزيرة. ثم لما

أُخمدت الثورة العرابيَّة في مصر أُرسلت العساكر الى السودان في شهر ديسمبر مددًا للحامية وعضدًا . وفي اواخر سنة ١٨٨٢ أُرسل القائمقام ستورت الى الخرطوم ليرفع للحكومة تقريرًا عن احوال السودان

وفي يناير سنة ١٨٨٢ سار عبد القادر باشا في مقدمة الجيش الى سنار ليخرج العدو منها وترك جانبًا من الجيش تحت قيادة حسين باشا امام الخرطوم فانتصر في وقعتين انتصارًا كاملاً . الاَّ ان العدو كان ينتصر في كوردوفان المرة بعد الاخرى واضطرَّ حامية العبيد الى التسليم بعد ان اطال الحصار عليها حتى كاد يُهلك مَن فيها جوعًا فلمَّا سلَّموا ضمهم جميعًا الى قومهِ من عساكر وسكان فصارت كوردوفان تابعة للمهدي من ذلك اليوم ولم تزل كذلك حتى يومنا هذا

وبينما كان عبد القادر باشا ظافرًا منصورًا صدرت اليهِ الاوامر بالعود الى القاهرة وتعين علاء الدين باشا محافظ مصوع حاكمًا على السودان عوضًا عنهُ . وتولَّى حسين باشا قيادة جيش سنار ووصل حينئذٍ هكس باشا ببطانتهِ الى الخرطوم واستلم قيادة الجيش

الفصل السادس

هكس باشا

انتظم هكس في الخدمة العسكرية سنة ١٨٤٩ في الجيش الانكليزي الهندي وشهد مواقع القتال في الهند والحبشة مرارًا وبعد ما خدم سنين عديدة تقاعد برتبة أمير الاي وتعيَّن لهُ معاش تقاعدهِ من الحكومة الهنديَّة . وفي سنة ١٨٨٢ قدم الى مصر وتعيَّن رئيس اركان حرب الجيش المصري ثم اناطت بهِ الحضرة الفخيمة الخديويَّة قيادة جيش السودان فبارح القاهرة في اليوم

السابع من شهر فبراير (شباط) سنة ١٨٨٣ ببطانتهِ واركان حربهِ ومرُّوا على سواكن ومنها الى بربر سالكين طريق الصحراء وهناك ركبوا بواخر النيل فوصلوا الى الخرطوم في اوائل شهر مارس (آذار) وبعد مضي ثلاثة اسابيع تبعهم الى الخرطوم سريَّةٌ من عسكر القاهرة حاملين ستة مدافع من طرز نوردنفلت ثم تبعهم اقسام متفرقة من العساكر المصريين الذين كانوا في الثورة العرابيَّة وقيل أن ضباطهم وعساكرهم كانوا يُرسلون جبرًا حتى حسبوا سفرهم هذا جزاء لما فعلوهُ يوم الثورة العرابيَّة

وفي ذلك الحين تجمَّع جمٌّ غفير من قبيلة البقادة على شاطئ النيل الابيض وكان يقودهم رجل يُدعى احمد المكشف فتجهزت في الكوَّة قوة عسكرية تحت قيادة حسين باشا لمقاومتهم. ثم جاءهم هكس بنجدةٍ من الخرطوم وفي اليوم الثالث والعشرين من ابريل (نيسان) ارسل جيشًا مؤَلفًا من اربع اورط ونصف من مشاة اعرابي وقسم من الباشبوزق وشرذمة من الهجَّانة والخيالة السودانيَّة واربعة مدافع لملاقاة العدو الذي كان معسكرًا في جبل العين. وولَّى هكس قيادة هذا الجيش لسليمان باشا وارسل معهُ الامير الاي كولبرن والامير الاي دكتلوجن وغيرهما من الضباط الاوربيين. واما هو فاخذ ثلاثة مدافع وسار الى جزيرة ابا بين سنار وكوردوفان ليقطع خط الرجوع على قبيلة بقادة

واما سليمان باشا فشكل جيشهُ على هيئة قلعة وسار بهم يقطع ارضًا شائكة قد شققتها حرارة الشمس فزادت المسير فيها مشقَّةً وما زالوا على تلك الحال حتى وصلوا الى قرية خربة فباتوا فيها وفي الصباح جدُّوا السير الى ان بلغوا ارضًا مرتفعة بالقرب من النيل فاحتلُّوها وبنوا زريبة فيها. وفي صبيحة الغد

جاءهم هكس اذ بلغهُ ان العدوَّ على وشك الهجوم عليهم وبقوا هناك ثلاثة ايام . وبعد ظهيرة اليوم السادس والعشرين اغارت عليهم فوارس العدو فشكلوا قلعة وفتحوا عليها نارًا قويةً فعادت خاسرةً .

وفي اليوم الثامن والعشرين تقدم الجيش وارسلوا الباشبوزق الخيالة في طليعتهم يستطلعون أحوال العدو ووضعوا الجمال والذخيرة في الوسط واحاطت بها العساكر على هيئة قلعة . وفي المساء عسكروا في الفلاء وفي الصباح استمرُّوا على سيرهم الاوَّل نحو ساعة من الزمان فعادت اليهم الطليعة واخبرتهم ان العدو قادم مسرعًا . فوقف المربع حول الجمال والمهمَّات في سهل حسن الموقع لا يتيسر للعدو الاختباء فيهِ ولا التستر من نار الجند . وكان على كل ضلع من اضلاع المربع الف بندقية وكانت المدافع موضوعة خارجهُ امام كل زاويةٍ من زواياهُ . ولم يضع هكس المدافع في الزوايا نفسها عند ملتقى اضلاع المربع كجاري العادة لأنهُ احبَّ ان يصل اضلاع المربع وصلاً تامًّا ولا يفرّقها بوضع المدافع والطوبجيَّة بينها فيبقى للعدو سبيل الى داخل المربع . ثم بذر حول المربع وعلى مسافة منهُ كثيرًا من المسامير المثلثة الرأس لتغرز في ارجل العدو وحوافر الخيل التي لا نضولها فتصدها عن التقدم عند الهجوم .

ثم ارسل طليعة صغيرة لتجسّس حركات العدوّ فعادت اليهِ بعد برهة من الزمن وانبأتهُ بقدومهم ولم يمضِ الاَّ اليسير حتى لمعت اسنَّة حرابهم وبان من تحتها جيش جرَّار خارج من غابٍ على مسافة الفي ذراع عن المربع وكان في مقدمتهم زعماء الثورة ناشرين الالوية الملونة فوق رؤُوسهم وهم ينشدون نشائد النصر والفوز وكان فرسانهم متفرقين بين المشاة . وليس على جيشهم دليلٌ من

دلائل الانتظام فتقدموا على هيئة قوس قد اتجه قاباها نحو قاعدة المربع فصدرت الاوامر باطلاق المنار عليهم وتسديد البنادق الى نقط واطئة. وتقدم العدو بجنان ثابت حتى انهال عليهم رصاص البنادق وفتكت نيرانها بهم فتكاً ذريعاً ثم صوبت عليهم مدافع الزوايا فابادت قسماً عظيماً منهم. وحينئذٍ اغار كبار المشايخ على المربع وهم يحثون رجالهم على الجهاد والكفاح فحملوا معهم بقلوب اقسى من الجلمود وهم لا يبالون بالموت. وكنت ترى الفارس منهم يجرّد سيفهُ ويطلق عنان جوادهِ فلا يقرب من المربع حتى يصاب ويسقط على الارض ثم ينسدّ جرحهُ بيدهِ ويهجم حتى يصرعهُ الرصاص فيقع قتيلاً مجندلاً. ولقد شهد لهم من حضر هذه الواقعة انهم قاتلوا قتال الابطال المعدودين حتى كانوا يهجمون بجيادهم الى افواه المدافع وهم يضربون بالحسام يميناً وشمالاً غير مبالين بنيران البنادق وقنابل المدافع. وقتل في هذه المعركة اثنا عشر شيخاً من مشايخ العدوّ العظام. وكان المقدم عليهم شيخاً عظيم الشان يقال لهُ عمر المكشف ارسلهُ المهدي من كوردوفان واصحبهُ بشيخ العرقي. وكان هذان الفارسان ينتقلان مدَّة القتال من يمين صفوفهم الى يسارها يترقبان نقطة ضعيفة في المربع ليهجما عليها ويدخلا اليهِ منها فوافتهما المنيَّة قبل أن ينالا بغيتهما. ولما رأى الاعداء ان زعماءهم قُتلت وبيارقهم غُنِمت مالوا ميلةً واحدة على الجانب الايمن ففتحت عليهم افواه المدافع ولذلك لم يثبتوا الاَّ القليل حتى ولَّوا الادبار وبقي منهم نفر قليل استحاروا الموت في سبيل الجهاد على الهزيمة فكان كلٌّ منهم يتقدَّم الى قرب المربع ويرمي حربتهُ في وسطهِ ثم يموت قتيلاً. ولما انجلت غياهب الدخان وسكن العجاج وجدوا ان اكثر الذين قتلوا من الاعداء قُتلوا على مسافة ستماية

ذراع عن المربع اوحواليها . وقد اطنب قادة الجيش بمدح العساكر ايضًا وقالوا انهم ثبتوا في وسط المعركة ثباتًا يُذكر وحاربوا محاربةً تُشكر

ومّما يدل على بسالة الاعداء واستماتتهم في سبيل الجهاد ان ضابطًا من ضباط الجيش أُرسل لاحضار عَلَم من اعلام العدو كان ملقًى على الارض على قيد عشر خطوات من المربع فلما وصل اليهِ وتناولهُ بيدهِ هجم عليهِ حاملهُ وكان مصابًا برصاصةٍ في فخذهِ وطعنةٍ في يدهِ ثم هجم عليهِ رجل آخر سليم البنية كان مطروحًا بين القتلى فدافع الضابط عن نفسهِ وضرب الاول بسيف على رأسهِ واطلق على الثاني عيارًا ناريًا فتخلّص منهما ولكن بعد قتال عنيف

وكان عدد العدو في هذه المعركة بين اربعة آلافٍ وخمسة وعدد قتلاهم الذين تركوهم في ساحة القتال لا يقل عن خمسماية عدا الذين حملهم ذووهم من الاقرباء والاصدقاء وفرّوا بهم الى ديارهم حيث كانوا يدفنونهم بالاجلال والاكرام ولم يقتل من عساكر هكس المصرية الاّ اثنان وجُرح منهم عدد قليل . ثم تقدمت العساكر نحو جبل العين فوجدوا ان العدو قد اخلاهُ وفي ذلك الحين جاء الحكومة كثيرون من زعماء الثورة يطلبون العفو ويعدون بالطاعة لهكس والرضوخ لاوامرهِ وفي اواخر الصيف خمدت نيران الثورة في سنّار خمودًا تامًا وانحصرت سلطة المهدي في درفور وكوردوفان

ولبث هكس بعساكرهِ في جبل العين اياماً ثم قفل راجعًا بهم الى الخرطوم وترك في الدويم حامية قوية ثم قرَّرت الحكومة افتتاح كوردوفان ثانيةً وكسر شوكة المهدي لانهُ كان يرسل رسلهُ الى اهل الخرطوم نفسها ويغريهم بالتمرُّد على الحكومة فاخذ الجنرال هكس يجهز جيشًا للقتال ويراسل مَنْ كان على الحيادة

من قبائل كوردوفان ويطلب منهم الانضمام اليهِ ثم شرع في انتخاب الطريق التي يسير فيها الى العبيد. وكانت الصعوبة العظمى في ذلك قلَّة المياه. فان مديرية كوردوفان تستقي من آبار يبعد بعضها عن بعض بعداً شاسعاً ويجفُّ اكثرها في فصل الصيف. فاعتمد بعد التروّي ان يسير بجيشهِ الى الدويم على طريق النيل ثم يعرّج جنوباً فغرباً في الصحراء ويخترق جبل كون حتى يصل الى بركة شرقلة لانهُ تأكد بعد البحث الدقيق وهو في الخرطوم ان الحصول على المياه في هذا الطريق أيسر من الحصول عليها في غيرهِ ولزيادة الاحتياط بادر باعداد جمال كثيرة تنقل المياه للجيش كلهِ مدَّة اربع وعشرين ساعة

وفي اليوم الثامن من سبتمبر (ايلول) استعرض هكس باشا جيشهُ وكان مؤلَّفاً من سبعة آلاف من المشاة واربعماية من الباشبوزق الخيَّالة وماية جندي مدَّرعين بالدروع الفولاذية واربعة مدافع من طرز كروب وستة من نوردنفلت وعشرة من المدافع القصيرة. وفي صباح اليوم التالي قام بجنودهِ هذه قاصداً كوردوفان فوصل الى الدويم بعد مسير اثني عشر يوماً مع ان القوافل كانت تقطع هذه المسافة في اربعة ايام فقط. واضاف حامية الدويم والكوة الى القوَّة التي كانت معهُ فبلغ عدد جيشهِ عشرة آلاف وخمساية مقاتل وكان معهُ علاء الدين باشا حاكم السودان وكثيرون من ضبَّاط الانكليز. ويظهر من كتبة بعضهم ان الرعب كان مستولياً على قلوب اشجعهم وان ابطالهم لم يكونوا يتوقعون من هذه الحملة خيراً لعلمهم انها محفوفة بالاخطار والمكاره. كتب بعضهم الى صديق لهُ في الثاني والعشرين من سبتمبر (ايلول) يقول "اننا على شفا خطر عظيم فعند المهدي اكثر من خمسة عشر الفاً متسلحين بالاسلحة

النارية التي تحشى من قواعدها واربعة عشر مدفعًا وزد على قوتهِ هذه فرسانهُ المشهورين فان التعصب الديني قد جعل كل فارس منهم بطلاً مغوارًا . واعظم مصاعبنا استقاء الماء فان الآبار التي على الطريق قد رُدِمت وسنفارق النيل بعد مسيرنا من الدويم ولا نتزود من الماء اكثر مما يكفينا اربعًا وعشرين ساعة فقط وعددنا احد عشر الف جندي وستة آلاف بغل وجمل . فاذا فاجأنا العدوّ فنحن في خطر عظيم واذا كسرنا كسرةً واحدة لم يرجع احد منا سالمًا الان الثورة تعمُّ السودان قاطبة في الحال". وكتب غيرهُ في الثالث والعشرين منهُ يقول "اننا على خطر مبين فلا تجزعوا اذا بلغكم بعد ايام قلائل ان جثتي امست فريسة لوحش افريقية فاني أُفضّل ان اموت بسنان عريض من ان انقلّب على فراش الموت والعذاب مدّة طويلة اثر داء عياء كما هو نصيب الاكثرين في هذا العالم . وسنضطر ان نسير دائمًا في مربّع ونضع جمالنا العديدة في الوسط لاننا نخاف ان تفاجئنا فوارس العدو ولذلك ولاشتداد الحرّ نهارًا لا نسير في اليوم الاّ عشرة اميال فيلزمنا ان نسير اربعة ايام متوالية بين بئرٍ واُخرى ثم اذا وصلنا الى الثانية سالمين خشينا ان نجدها مردومةً بالحجارة والاتربة وجثث البشر وجيف الجمال فنضطرّ ان نعود الى البئر الاولى على الاعقاب الاُول . وفوارس العدو تحدق بنا من كل ناحيةٍ تترقّب فرصةً مناسبةً لمداهمتنا

وفي اليوم السابع والعشرين قام هذا الجيش المنكود الحظ من الدويم باحثًا عن حتفهِ بظلفهِ وكانت جواسيس المهدي تجسّس حركاتهِ وتتنسم اخبارهُ وتبلغها للمهدي تمامًا . واما هكس فكان يتكل على اقوال ادلاّئهِ الذين

خانوهُ وكانوا يقودونهُ في طرق الضُلال . وعقد مجلساً حربياً في اوَّل محطٍ بعد الدويم للنظر في مسأَلة المحافظة على خط الرجوع فقرَّ قرارهم على ان لا يتركوا جندياً في النقط التي يتجاوزونها . ومَنْ انعم النظر في هذا القرار وجدهُ خطاءً مبيناً لان قطع خط الرجوع عليهم يقطع الصلات بينهم وبين الدويم والخرطوم

وآخر الرسائل البرقيَّة التي وردت من هكس باشا كان تاريخها في اليوم السابع عشر من اكتوبر (تشرين الاول) ونصها " نحن الآن على مسافة عشرين ميلاً من نواربي . واني متأَسف لاننا لم نحفظ خطَّ الرجوع فقد افادني حاكم السودان ان العرب سيقطعون عنا الذخيرة والزاد ويحيطون بنا من كل ناحيةٍ بعد ان يوغل جيشنا في البلاد وزد على ذلك ان برك المياه ستجف فلا يمكننا استقاء الماء الاَّ بحفر الآبار . صحة العساكر جيدة والحر شديد "

وانقطعت الاخبار عن قوم هكس مدَّةً طويلةً ففرغت جعبة الاصطبار وكثرت الظنون . وفي ٣١ اكتوبر (تشرين الاول) جاءت رسالةٌ برقيَّةٌ من الخرطوم تقول ان اعرابياً قدم من ساحة القتال وبشَّر بانتصار هكس انتصاراً تامًّا وبانهزام العدوّ بعد ان قُتل منهُ خلق كثير ثم ثبَّت هذا الخبر اثنان من عساكر هكس كانا مع الجيش . ومرَّت ايام طوال على هذه البشرى ولم يأْتِ بعدها ما يؤَيّدها فأَمسى الناس بين شكٍّ ويقينٍ حتى وردت اخبار السوء وثبت نبأُ البلاء العظيم وذلك ان هكس قُتل هو وبطانتهُ وجيشهُ باد عن آخرهِ . واما تفاصيل وقائع هكس كما هي فلم يقف احد على حقيقتها وربما بقيت مستورة كلَّ الايام لانهُ لم ينجُ من جيشهِ رجل خبيرٌ صادق قادرٌ على

وصف تلك المعارك وصفًا يوثق بهِ . والمرجح عند مَن كتب عن هذه الحملة ان حركات الجيش كانت بعد مبارحة الدويم على ما يأتي بوجه التقريب كما يؤخذ من الاقوال الواردة من مصادر متعدّدة

بعد مبارحة الدويم تقابل جيش هكس بالعدوّ فحصلت بينهم مناوشات عديدة لم يقتل فيها من المصريين الاّ قليل من الباشبوزق والسودانيين غير المنظَّمين . ولما وصل هكس الى بركة كهد وجد بحيرة فاستقى منها ما يلزمهُ من المياه وقسم جيشهُ الى قسمين قاد احدهما قاصدًا العبيد وسلَّم قيادة القسم الثاني لعلاء الدين باشا وامرهُ ان يقصد بهِ كاظ الواقعة على الجانب الشرقي من العُبيد ليمنع المهدي من التقدُّم . وسار الجيش الى ألوبة وبات فيها فالتقى على الطريق بشرذمات متفرقة من العدوّ كانت تفرُّ من امامهِ حين تقدُّمهِ عليها . وفي اليوم التالي وهو في ما يُظن الثاني من نوفمبر (تشرين الثاني) تقدم الجيش متزوّدًا من الماء ما يكفيهِ اربعًا وعشرين ساعة والظاهر ان الادلاَّء الذين كانوا يدلونهم على الطريق خانوهم فقادوهم الى غابٍ وعرٍ عسر المسلك بقوا فيهِ ثلاث ساعات حتى قطعوهُ ولم يخرجوا منهُ حتى لقوا العدوّ مقابلهم فصفَّ هكس جيشهُ على هيئة مربّعٍ وحاربهُ النهار بطولهِ فانهزم العدوّ وباتت العساكر في ساحة القتال . ويظهر ان هكس لمَّا رأَى العدوّ مقبلاً عليهِ ضمَّ قسمي جيشهِ في النهار . وفي صبيحة اليوم الثالث من نوفمبر قام الجيش للقتال وفرغ الماء منهم ولكنَّهم ثبتوا على العطش وقاتلوا ثبات الابطال حتى قُتل عدد غفير من الفريقين ودارت الدائرة على العدوّ . ثم باتت العساكر ليلة ثانيةً في ساحة القتال . وفي اليوم الرابع ساروا نحو اربع ساعات فقابلهم

العدوّ برصاص كوابل المطر فاضناهم الرصاص والظمأ ولكنهم ثبتوا النهار بطولهِ بين هجوم ودفاع. وفي اليوم الخامس كفّ القتال وتقدم الجيش الى الآبار في طريق وعرة محجرة عسرة المسالك. وكان المهدي قد ارسل دراويشهُ فكمنوا لهم في الطريق حتى اذا ساروا نصف ساعة من الزمن احاطوا بهم من كل جانب واطلقوا عليهم نيران البنادق والمدافع التي كسبوها من حاميات كوردوفان. ولم يقدر هكس على استخدام مدافعهِ ولم يتمكن من صف جيشهِ على ما يروم لكثرة الاشجار والاحجار في ذلك الوعر فتفرقت العساكر شرذمات عديدة واحدق العدوّ بكلٍ منها على حدةٍ فضيّق عليها ولكنها حاربتهُ محاربة الشجعان حتى فرغت منها الذخائر فهجم عليها في منتصف النهار هجمة واحدة فبدّدها ومحق قوّتها وقتل قادتها. قيل ان علاء الدين ذُبح في بدء المعركة واما هكس فكان آخر من قُتل وقيل انهُ حشا طبنجتهُ واطلقها ثلاث مرات ثم استلّ سيفهُ وقد ضاق صدرهُ لمَّا رأى ان بطانتهُ قد أُوردت حتفها واحدًا بعد واحد وحمل يضرب بهِ يمينًا ويسارًا حتى فاجأتهُ المنية بسنان الرمح فتبع رفاقهُ ورويت رمال البيداء بدمهِ. وقيل انهم اتوا بجثتهِ الى مشائخ العدوّ فطعنهُ كلٌّ منهم برمحهِ طعنة يُحسَب لهُ اجرٌ بقتلهِ وقال بعضهم ان العرب بنوا لهُ مقبرة عظيمة اعتبارًا لما رأوهُ من شجاعتهِ وبسالتهِ في ساحة القتال واما بطانتهُ وكبراء جيشهِ فقطعوا رؤوسهم وعلّقوها على باب الأُبيض

ويقال ان جيش المهدي بلغ في بدء المعارك ١٥٠٠٠٠ مقاتل وانضمّ اليهِ عدد عظيم بعد ذلك. وكان العرب يحاربون محاربة وحشية بلا رحمةٍ ولا شفقة فداسوا رقاب المرضى والجرحى وهم يتقلبون على فراش الموت وصمّوا آذانهم

عن اصوات المستغيثين من الجرحى والمشرفين على الموت بل كانوا يدوسونهم بارجلهم حتى يكملوا عليهم وهي فظائع لا يرتكبها الوحش الخالي من صفات البشرية العاري عن عواطف الانسانية

وفي اليوم التاسع عشر من الشهر المذكور وصل خبر هذا المصاب الى الدويم فاسرع الامير الاي ده كتلوجن الى الخرطوم وساعد وكيل الحاكم على ترميم حصونها واعدادها للدفاع والحصار لانهُ كان قد نودي بالثورة في جميع انحاء السودان . ودخل بعض الدراويش الى سنّار واقسم على القرآن ان المهدي اباد جيش هكس فاستفزَّ كلامهُ هذا خمسة آلاف من الاهلين الى اشهار السلاح والتمرُّد مع المهدي . ثم تقاطرت العساكر الى الخرطوم من مدن السودان . وهاجر الخرطوم حينئذٍ كثيرون من الاجانب

ولما كان هكس مهتمًا بتجهيز حملتهِ المنكودة الحظ في شهر اغسطس (آب) سنة ١٨٨٣ على ما مرَّ بهِ الكلام بلغ توفيق بك محافظ سواكن ان جماعة من العرب تجمعوا في نواحي سنكات المذاكرة في امر الثورة وكان عدد العساكر في سنكات يومئذٍ لا يزيد عن الستين وهي على مسافة اربعين ميلاً عن سواكن. فركب توفيق بك اليها وامر عثمان دجنا رئيس حزب العصاة ان يأتي اليهِ فلم يمتثل . وكان عثمان دجنا تاجرًا ونخاسًا معروفًا في الاقطار السودانية ولما بطلت تجارتهُ عزم على تهييج البلاد وحث الاهالي على الثورة ولكنهُ عاد خائبًا فصبر على بلواهُ وبقي يترصَّد الفرص لتنفيذ مرامهِ حتى قام محمد احمد وادعى المهدويَّة فانضم اليهِ . وبعد يومين قدم عثمان دجنا الى سنكات بقوة مسلَّحة يبلغ عددها ثلاثة آلاف مقاتل وعسكر على مسافة ميل واحد من ثكنة (قشلاق)

العساكر . وارسل الى توفيق بك كتابين من المهدي يقول فيهما انهُ لما كان المصريون اقل رتبةً واعتباراً في عينيَّ من المسيحيين واليهود والكافرين وجب عليهم ان يسلموا جميع الاسلحة والذخيرة وباقي مهمَّات الحكومة الى عثمان دجنا وزيري. وقالت الرسل لتوفيق بك انك ان لم تمتثل لهذا الامر فسننفذهُ بحد السيف . فوقع توفيق بك في حيرةٍ عظيمة لانهُ لم يكن عندهُ الاَّ ستُّون مقاتلاً كما سبق وكانت ثكنة (قشلاق) العساكر متَّسعة غير حصينة فلا يقدر على حفظها والدفاع فيها لقلة حاميتها . فاجابهم توفيق قائلاً اني لا اجيبكم سلباً ولا ايجاباً إِذ اني مأمور وعليَّ ان استشير صاحب الامر والنهي في مثل هذه الامور قبل ان ابدي رأياً . وكان قصدهُ من ذلك تأخير العدوّ عن الهجوم حتى يتمكن من تحصين مركزهِ . فبعد ذهاب الرسل امر بترميم الثكنة (القشلاق) ووضع اكياساً عديدة من الرمال وراء البوابة . ولما ملَّ عثمان دجنا من الاصطبار طلب من توفيق الجواب القاطع والاَّ هجم عليهِ ثم ما لبث الاَّ القليل حتى هاجمهُ بجيشهِ . وكان الجانب الاعظم من عساكر توفيق بك سودانيين يحاربون محاربة الاسود فحاربوهم وقتاً طويلاً حتى دخل الثكنة عشرون من العصاة فقتلهم الجنود عن آخرهم ونكص العدوّ على الاعقاب تاركاً وراءهُماية قتيل . وقُتل من حامية توفيق سبعة عساكر وجُرح ضابط وعشرة رجال وجُرح توفيق نفسهُ في خمسة اماكن . ولما انتهى القتال جاء العدوّ ثمانماية مقاتل مدداً الاَّ ان عثمان دجنا لم يعد الى المحاربة ولو عاد لدارت الدائرة على توفيق بك بلا ريب لانهُ لم يبقَ مع الجندي من عساكرهِ اكثر من اثني عشر عياراً من الذخائر . ووصل اليهِ المدد بعد ذلك واجتمع عندهُ في شهر اكتوبر

مئات من العساكر

وانتشر سمّ الثورة في عروق البلاد فحاصر العدوّ طوكار الواقعة الى جنوبي سواكن وعلى مسافة خمسة واربعين ميلاً منها . وفي اليوم الثالث من نوفمبر أرسل ٢٥٠ مقاتلاً من سواكن الى ترنكتات بحرًا لانقاذ حامية طوكار . وبعد ان تقدموا برًّا الى طوكار هجمت عليهم شرذمة من العدوّ اقل عددًا منهم فقتلت نصفهم وهرب النصف الآخر . وقُتل في هذه المعركة الكومندار مونكريف قنصل سواكن . وفي اليوم الثاني والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني) هجم العدوّ على سواكن نفسها وعاد خائبًا

الفصل السابع

العصاة في سواكن

ان مصاب هكس زاد الثورة هولاً وجعل لها عند اهل السياسة اهمية كبيرة وشأنًا عظيمًا . فتألف جيش من الجندرمة المصرية والباشبوزق الاتراك وعساكر زبير السودانيين وشرذمة قليلة من البوليس الايطالي وسلمت قيادتهُ الى الجنرال باكر باشا ليضم اليهِ حامية سواكن فتتألف حملة يسير بها الى بربر لاخماد نار الثورة فيها واعادة الصلات بينها وبين سواكن

وكان العصاة على مسافة قصيرة من سواكن ففي اليوم الثاني من ديسمبر (كانون الاول) سنة ١٨٨٣ أُنفذ اليهم من المدينة سريَّة مؤلفة من عشرين خيالاً وخمساية مقاتل سوداني وثلاثة عشر ضابطًا ومائتين من الباشبوزق ومدفع واحد . فقابلهم العدوّ على مسافة عشرين ميلاً من سواكن في بقعة قريبة من طمانيب . وفي الساعة الرابعة بعد ظهيرة ذلك النهار عاد اركان حرب

السرية المذكورة الى سواكن مصحوبًا بالبعض من عساكر الباشبوزق واخبر بانهم شاهدوا العدوّ متفرقًا في السهل شرذمات فتبعوهم حتى اوصلوهم الى التلال وهناك احاطت بهم العرب من كل جهة وضيّقت عليهم المسالك ولما تركهم الضابط المذكور كان الفريقان يتقاتلان. ويظهر ان القتال انتشب بينهم في الظهر ولم يلبثوا الاّ وقتًا قصيرًا حتى انهزمت عساكر الباشبوزق واخربت نظام العساكر السودانيين الذين كانوا يحاربون محاربة الابطال. ثم تجمّع على السودانيين نحو ثلاثة آلاف من العصاة فخرقوا المربع الذي كانوا قد شكلوهُ والتحموا بالسلاح الابيض ولذلك قيل ان العساكر لم تتمكن من اطلاق اكثر من عشرين عيارًا ناريًّا مع ان ذخيرة كل منهم لم تنقص عن مائتين. وقيل ان العسكري السوداني كان يثبت في مكانهِ ويضرب العدوّ بمؤخر بندقيتهِ حتى يجيئهُ حتفهُ على سنان الرمح او حد السيف فيموت مقاتلاً شريفًا مستخيرًا الموت على ان يعيش منهزمًا خسيسًا. ولم ينجُ من السبعماية والعشرين مقاتلاً الذين خرجوا من سواكن الاّ خمسة واربعون نفرًا. وقتل من العدوّ ايضًا عددٌ عديد فقد عدّ بعضهم اربعماية قتيل منهم في المحل الذي جرت المحاربة فيهِ

وفي اليوم الثامن عشر من ديسمبر بارح سعادة الجنرال باكر باشا القاهرة قاصدًا سواكن وكان قد سبقهُ اليها الاميرالاي سرتوريوس الذي كان رئيس اركان حربهِ. ثم توجّه الجنرال المذكور مصحوبًا بالاميرال هيوث الى مصوّع وقصد بذلك ان يتحالف مع رؤساء قبائل العرب والحبشة ضدّ الثائرين وإن يسهّل طريقًا لانسحاب حامية الخرطوم على طريق كسالا. فوصل الى

مصوّع في ٢١ ديسمبر (كانون الاول) سنة ١٨٨٢ وارسل من حاميتها بعض العساكر السودانيين الى سواكن تقوية لجيشهِ واستعاض عنهم في مصوّع بعساكر مصرية. ولمّا عاد الى سواكن اخذ ينظم جيشهُ ويعدّهُ للقتال. واوّل ما عوّل عليهِ كان تخليص سنكات حيث كان توفيق بك محاصرًا

وفي اواخر شهر يناير (ك٢) سنة ١٨٨٤ وفدت رسالة من قائد حامية طوكار يقول فيها انهُ في ضنك شديد جدًا وقد فرغ من عندهِ الزاد والماء وضنيت عساكرهُ من الاسهال. وانهُ اذا لم تأتهِ نجدة بعد يومين او ثلاثة ايام يضطرُّ ان يفتح الابواب للعصاة. ولذلك رأى باكرباشا ان الضرورة تقضي عليهِ بالاسراع لانقاذ حامية طوكار في الحال فخرج من سواكن بحرًا ونزل في ترنكتات بالف وستماية مقاتل في اليوم السابع والعشرين من يناير (ك٢) وفي اليوم التالي تبعهُ باقي جيشهِ من سواكن فبلغ عددهُ اربعة آلاف. وكان المظنون ان جيش عثمان دجنا يبلغ اربعة اضعاف ذلك

وفي اليوم الثاني من فبراير (شباط) تقدمت فرقة من الجيش مسافة ثلاثة اميال او اربعة الى جنوب ترنكتات وبنت هناك حصنًا وفي اليوم الثاني تبعها باقي الجيش فعسكروا كلهم في الحصن وكان في مكان منيع حسن الموقع يصلح لأن يكون معسكرًا. وفي صبيحة اليوم الرابع من فبراير اصطفت العساكر قبل طلوع الفجر وفي الساعة السابعة ونصف حمّلوا الجمال وكان عددها ثلثماية جمل وقامت الحملة للمسير على الهيئة الآتية

كانت العساكر المشاة (البيادة) ثلاث أرط فتقدموا مصطفين في اعمدة (قولات تدريجله) واما المدفعيَّة (الطوبجية) والخيالة فتقسمت بين المقدّمة

والجناحين . وأُرسل خفر الفرسان (ديده بانات السواري) في نقطٍ متفرقة تبعد مسافة ميل عن الاساس بقصد حمايتهِ من هجوم الاعداء عليهِ بغتةً . واما خيالة الاتراك فكانوا هم الاحتياطي . وكان العدوّ متفرقًا في طول البيداء وعرضها فما احسَّ بقدوم الجيش المصري حتى تجمع وزحف عليهِ . وفي الساعة التاسعة اجتمع عدد كبير منهم على كثيب مرتفع وكانت اسنَّة رماحهم تلمع عن يسار المقدمة واما هم فكانوا مختبئين في ادغال العوسج والاشجار الشائكة . فأُطلقت عليهم المدافع ولكنَّ القنابل كانت تمرُّ فوق رؤُوسهم فلا تلحق بهم ضررًا ولمَّا تقدَّم الجيش في المسير اختفت عنهم اسنَّة الرماح ولكن طلائع الخيَّالة لم تكفَّ عن اطلاق بنادقها الى جميع الجهات . فخرج من وراء اكمةٍ هناك نحو اثني عشر خيَّالاً من العصاة على خيول غير مسرجة وشنُّوا الاغارة حتى طافوا حول الجناح الايمن وعلى مسافة خمسمئة ذراعٍ منهُ ثم مالوا نحو المقدمة كأَنهم يقصدون استطلاع عدد الجيش ومعرفة قوتهِ . وبينما هم على موازاة العمود (القول) امر باكر باشا خيَّالة الاتراك باقتفاء اثرهم فتبعوهم ولكنهم لم يبعدوا نصف ميل حتى احاطت بهم العصاة بحرابهم حيث كانوا كامنين بين الادغال فنجا خيَّالة العصاة ورجع الخيَّالة الاتراك الى الجيش . ثم ان خيَّالة العصاة الاولين عادوا ثانيًا فاغاروا على المقدمة ثم مالوا نحو الجناح الايسر . وبينما كان الجيش لاهيًا بهذا الحادث علا الصياح بين مناوشي (شرخه جية) الخيالة في الجناح الايسر كأَنهُ قد دهمهم مصابٌ غير منتظر . وجعل خفر الفرسان (ديده بانات السواري) في الميسرة يتقدَّم رويدًا رويدًا نحو اساس الجيش ممَّا يدلُّ على ان الضبَّاط الذين عُينوا ليكونوا قوَّادهم جهلوا وتجاهلوا

عن الغرض الوحيد المقصود من تعيين الخفر . وقد تبيَّن بعد البحث والتحقيق ان العصاة كانوا كامنين قرب الجناح الايسر فاعلوا الصياح وهجموا هجمة واحدة على الخيَّالة الذين هناك فوقع الرعب في قلوب الخيَّالة فالووا اعنَّة خيولهم وولَّوا الادبار متشتتين . فصدرت الاوامر حينئذٍ لعساكر المشاة ان يشكلوا قلعة (مربعًا) وكانوا متمرّنين على ذلك تمام التمرين الَّا انَّهم لمَّا نزلوا الى ساحة الوغى ذهب التمرين فيهم سدًى فلم يحسنوا تشكيل القلعة بل اصطفَّ ثلاث اضلاع منهم وبقي بلوكان من اورطة الاسكندرية لتكميل الضلع الرابعة . فهذان لم ينتقلا من مكانهما بل انهما لمَّا رأيا رماح العدوّ مشرعةً ووقعت عيونهما على اسنَّتها اللامعة ذابت قلوبهما ولبثا في مواقفهما لا يبديان حركة ولا يخطوان خطوة . فحمل العدوّ بمعظم قوتهِ على الميسرة وعلى الجانب الايسر من مقدّمة القلعة . وكانت القلعة عارية عن كل نظام قد تألفت ساقتها او الضلع الخلفيَّة منها من اخلاط العساكر والبغال والخيول والجمال وكلُّهم يركضون الى وسطها ليحتموا داخلها ولذلك انحلَّت عزائم العساكر السودانيين الذين كانوا في الضلع اليسرى وفي قسم من المقدّمة وصغرت هممهم بعدما حاربوا محاربة تذكر فتشكر في بدء القتال . ولم ينثنِ العدوّ عن الهجوم حتى اخترق صفوف القلعة واختلط بالعساكر وابطل نظامهم وادار فيهم السيوف والرماح . واما العساكر فاطلقوا كثيرًا من بنادقهم ولكن رصاصهم كان يذهب عبثًا فلا يزيد المعركة الَّا هولاً . ولما كانت حملة العدوّ موجَّهة على يسار القلعة كان الذين في يمينها غير مشغلين ولذلك وجهوا بنادقهم نحو المقدَّمة واطلقوا عليها نارًا آكلة ففتك رصاصهم فتكًا ذريعًا ولكن في رفاقهم الخيَّالة الذين كانوا هناك

وحلَّ الرعب في الجيش وتولاَّهُ الفشل والانخذال وثارت الجمال مذعورةً ونفرت في جوانب البيداء وهي تهدر بين المدافع وتدوس العساكر الذين كانوا يطلقون بنادقهم في الهواء على غير مرمىً ولا غرض. ولما رأَى الاعداء ذلك استبشروا بالنصر واعتزَّت نفوسهم فيهم فنشروا ذوائبهم على اكتافهم وانقضوا كالنسور وهم يطيحون الرؤوس عن الهامات يمينًا ويسارًا ولا يلقون من الجيش مقاومةً ولا دفاعًا فخُيّل لهم انهم ابطال الزمان وان البشر لا تطيق حرّ قتالهم فصار واحدهم يهجم على المئات من عساكر المشاة ولا يبالي. وكان هناك فارس من فرسانهم قُطِعت ذراعهُ في ساحة القتال فهجم وهو اقطع على بلوك من الخيَّالة ولم يرجع الاَّ وقد وصل الى ضابطهم الاكبر وضربهُ بسيفهِ فجرحهُ جرحًا عظيمًا. واما الضابط فلم يستعدَّ لدفاعٍ ولا مقاومة بل انهُ لما رأَى الاعرابي يخترق الفرسان مقبلاً عليهِ بسط ذراعيهِ وجعل يستغيث متذلّلاً لشدّة ما اعتراهُ من الخوف والوَجَل

وكفَّ العسكر عن الحرب والقتال وادار فيهم العدوّ سلاحهُ قتلاً وذبحًا بلا رحمة ولا شفقة. قيل ان العساكر كانوا يطرحون سلاحهم على الارض ويركعون ويبسطون الايادي نحو السماء طالبين الشفقة والرحمة فيمسكهم الاعداء برقابهم ويطعنونهم بحرابهم في ظهورهم ثم يذبحونهم ويتركونهم فريسة للضواري والعقبان ولم يقف العساكر في ساحة القتال بعد هجوم الاعداء عليهم الاَّ ثماني دقائق

اما المشاة فالذي لم يقتل منهم ولَّى الادبار طالبًا النجاة واما الفرسان فاطلقوا لخيولهم الاعنَّة وبذلوا في شاكلاتها المهاميز وساروا كالبرق لا يلوون

على احد . وكثيرًا ما كنت ترى خيولاً تركض بين المنهزمين ولا فرسان على ظهورها وفرسانًا يركضون لان خيولهم قُتلت وهم منهزمون

واما باكر باشا فكان هو واركان حربهِ مع طليعة الخيّالة في ميسرة الجيش حين هجوم العرب عليهم فحال العدو بينهُ وبين عساكرهِ قبل ان يتمكّن من العودة اليهِ ولذلك حمل ببطانتهِ على الاعداء فاخترق صفوفهم وأتى الى المربّع فقُتِل من حاشيتهِ كثيرون ومن جملتهم الاميرالاي عبد الرزَّاق بك الرئيس الوطني لاركان حرب الجنرال . ولما وصل الى المربع أغار بجوادهِ امام الضلع المقدّمة تحت نيران بنادقها فوجد ان العدو قد دخل المربّع وقضي الأَمر ولم تبقَ في اليد حيلة لدفع المصاب . ويقال ان المدفعيَّة لم تطلق مدافعها الّا طلقةً واحدةً ثم ولّت الادبار وطلبت العساكر المنهزمة ترنكتات والعدو يتعقبها ويقتل كلّ مَن أَدركهُ من المشاة والفرسان مسافة خمسة اميال . ولم تحفظ العساكر ترتيبًا ولا نظامًا في انهزامها الّا عساكر مصوع السودانيون فانهم تقهقروا بهيئةٍ منتظمة شهدت لهم بالبسالة والشجاعة فكانوا يتقهقرون تدريجًا ورصاصهم لا ينقطع عن الاعداء حسب قانون الرجوع . وقد حدثت حوادث كثيرة اثناء الهزيمة دلّت على بسالة بعض الضباط الذين شهدوا هذه الواقعة وعظم شهامتهم . منهم الاميرالاي هرفي بك الذي كان من اركان حرب الجنرال فانهُ افرغ جهدهُ في تخفيف المصاب حتى اضطرّ ان يضرب مَن كان يتبعهم من الاعداء ضربًا بالطبنجة ووقّف من استطاع توقيفهُ من العساكر للمدافعة وصد العدو المطارد لهم ثم حانت منهُ التفاتة فرأى خادمهُ بين المنهزمين وقد اعياهُ التعب وأوشك ان يقع في يد العدو فناداهُ واركبهُ حصانهُ وعاد الى

ترنكتات ماشيًا على رجليهِ

واَمَّا باكر باشا فكان آخر مَن عاد من ساحة القتال ولما وصل الى الحصن الذي بناهُ قبل القتال وقف فيهِ وأوقف بعضًا من الفرسان لمقابلة العدو وصدّهِ قدر الامكان عن قتل المنهزمين . ويظهر ان العدو تحسَّب من مدافع الاسطول في مينا ترنكتات فرجع عن المنهزمين عند وصولهِ الى ذلك الحصن. ولكنهُ لم يكن في مينا ترنكتات مدفع واحد يومئذٍ فلو تبع العدوُّ العساكر لذبحهم [illegible] آخرهم عند وصولهم الى المينا . ولما وصل العساكر الى ترنكتات هجموا كلهم [illegible]ة الى البحر وأرادوا ان يلتجئوا الى المراكب القليلة التي كانت راسية [illegible]منعهم عن ذلك كبار ضباطهم بان صوَّبوا عليهم رصاص طبنجاتهم ولولا ذلك لغرَّقوا المراكب لامحالة . وأحيى الجنرال وكبار القادة الليل كلهُ في تنزيل العساكر الى المراكب وكان الملّاحون الانكليز يساعدونهم في ذلك كلهِ وكان الاعداء قريبين منهم ولكنهم لا يجسرون ان يهاجموهم خوفًا من مدافع الاساطيل التي توهَّموا وجودها كما تقدَّم . وفي صباح الغد كان كل العساكر في المراكب فعرفوا حينئذٍ ان عدد الذين قتلوا في الواقعة الفا نسمة منهم ستة وتسعون ضابطًا . وعدد الضباط الذين قتلوا من بطانة الجنرال ستة عشر . وقيل انهُ قتل من عساكر زبير السودانيين ٤١٠ مقاتلين وكان عددهم يوم مبارحتهم ترنكتات ٦٧٨ مقاتلاً . وقتل من اورطة اسكندرية ٤٩٦ نسمة وكان عددها ٦٣٦ . وقُتِل من الاتراك عدد غفير ولم ينجُ من الستة والثلاثين ايطاليًا الَّا ثلاثة ومن الاربعماية الذين جاءوا من سنخيت الَّا سبعون . والمظنون ان اكثر القتلى قتلوا وهم منهزمون من ساحة القتال

ويقال ان العدو الذي مزَّق هذه الحملة كل ممزَّق لم يكن عددهُ اكثر من ١٨٠٠ رجل اي نحو نصف عدد الجيش ولم يقتل منهُ الَّا ثلثة . وعلى ذلك يُظَنُّ انهُ لو ترك العساكر تتقدَّم الى طوكار لأَبادها عن آخرها . واما الغنيمة التي اغتنمها منها فهي خمسة مدافع و ٣٦٠٠٠ رطل من ذخائر المدافع والبندقيات ونحو ثلاثة آلاف بندقية رمتها العساكر وهي هاربة . هذا عداً ما كان مع الجيش من المؤَن والمهمات والمواعين ونحوها فان العدو استولى عليها كلها

وحصل اضطراب عظيم في سواكن عقيب هذا الانكسار حتى التزم الاميرال هيوت ان يرسل اليها حامية من عساكرهِ البحرية . وعاد باكر باشا بباقي جيشهِ الى سواكن وزاد حاميتها الى ثلاثة آلاف عسكري الاَّ انهم كانوا اذا نظروا عدداً يسيراً من العدو عن أمدٍ بعيد فرّوا هاربين وكانت سواكن تعجُّ بالنساء والاولاد يبكون ازواجهنَّ وآباءهم الذين قتلوا في معركة طوكار حتى امتلأَت الآفاق بصراخهم وعويلهم وخفقت لذلك قلوب السامعين . وبعد يسير أُنيطت القيادة العسكرية وادارة الاعمال الداخلية في سواكن بالاميرال هيوت فكان حاكمها الوحيد وصدرت الاوامر الى باكر باشا بارسال بقية جيشهِ الى القاهرة وحينئذٍ شرعت الحكومة الانكليزية في اعداد جيش من جنودها لانقاذ طوكار

وفي تلك الاثناء سقطت سنكات بيد العدو وشربت الارض دماء حاميتها الابطال بعد ما صبروا على الشدَّة والجوع ما لا يصبر عليهِ الاَّ القلائل حتى انهم اضطروا الى اكل كل ما يؤْكل ولم يسلّموا . وشاع في اواخر يناير (ك ٢) ١٨٨٤ ان حامية سنكات ومن بقي فيها من السكان اكلوا كل

ما فيها حتى كلابها وقطاطها وشرعوا في اكل الخيول والجلود ولم يبقَ عندهم الاَّ كيسٌ من الشعير وان الزاد سينفذ كلهُ من عندهم في اول فبراير (شباط) وكتب توفيق بك بطل تلك الحامية وقائدها يقول اني اذا لم يأتني المدد فساخرج في عساكري واحارب مستقتلاً قاصداً الخروج الى سواكن فاني افضل الموت في ساحة القتال على الهلاك جوعاً. وفي الثامن من فبراير (شباط) ارسل رسالةً أُخرى بها يستغيث ويطلب النجدة بالحاح لا مزيد عليهِ وقال فيها ان العساكر تمضغ اليوم ورق الشجر لتسكين آلام الجوع. ومعلوم ان الطبيعة البشريَّة لا تستطيع صبراً على اكثر من ذلك. ولذا خرج توفيق بك في حاميتهِ وقاتل العرب قتالاً عنيفاً حتى ماتوا جميعاً موت اشراف الابطال فشربوا كاسات الحتوف من يد مرهفات السيوف وغسلوا بدمائهم كثيراً مَّما التطخ بهِ اسم الجيش المصري في تاريخ هذه الحرب واشتروا المجد لقومهم بثمن عزيز وبذلوا ارواحهم لشرف اسمهم وعزَّة وطنهم ولذلك تغنَّى الشعراء بمدحهم واكثروا من رثائهم ومن جملة ما قيل فيهم هذه الابيات (١)

قد عزَّ فيكِ العزا يا خير حاميةٍ	إسقت حميَّتها ابطالها العدما
حامت مكواسر بغيٍ حول معقلهم	يبغون فتكاً بهم او ينكثوا الذمما
هيهات ان ينكثوا عهداً وقد عرفوا	لا يسلمن شرف حتى يريق دما
فاستمسكوا بحبال المجد وانصرمت	اعمارهم فيهِ لكن مجدهم سلما
ومن يروم ذرى العلياء هان لهُ	بذل النفيس وضحَّى نفسهُ كرما
ومن قضى في دفاع عن حمى وطنٍ	يحيى بذكر ويبقى إسمهُ علما

(١) نظمها جناب اللوذعي الاديب ديمتري افندي خلاط ساعة وصول الخبر الى الاسكندرية

ومن تولى عزيزاً كان مصرعهُ ضمن الكبود يثيرُ الغم والالما
يا نخبةً شهدت في فضلهم نوبٌ سواد . اهوالها قد بيض اللمما
لئن فنيتم فانتم خالدون وان نزلتم الترب أُعلي قدركم وسما

واما تفصيل واقعة توفيق فكانت على ما ياتي . جاء في اليوم التاسع من فبراير (شباط) شيخ من الاعداء الى قرب سنكات وطلب من توفيق بك ان يسلم البلدة وتعهَّد لهُ بانهم لا يقتلونهُ فردَّهُ توفيق خائباً واعلمهُ انهُ يفضل شرب كاس الردى بالعزّ والشرف على الحياة بالعار والهوان . ثم جمع توفيق عساكرهُ وقال لهم انكم اذا حاربتم الاعداء مستقتلين فربما نصركم الله عليهم ونجوتم بانفسكم واذا بقيتم محاصرين هلكتم جوعاً الواحد بعد الآخر وليس لكم الى النجاة سبيل فالاعداء محدقون بنا من كل جانب . وما زال يشدّد عزائمهم ويحثهم على الثبات والقتال حتى صمموا على الموت في سبيل المجد والشرف وهان عليهم لقاء جيوش الاعداء العديدة . ثم احرقوا كل الذخائر والمهمات التي كانت في سنكات واضرموا النار في مخزن البارود، وسدوا افواه المدافع وخرجوا من سنكات بعد ما حمل كلٌّ منهم ما استطاع حملهُ من الذخائر وخرج النساء على اثرهم . فساروا نحو ميلين بلا معارض ثم وصلوا الى مضيق وعرٍ فلقوا العدوَّ كامناً فيهِ . ولقلَّة عدد العساكر لم يتمكن توفيق بك من ارسال طليعة امامهُ للاستكشاف فما دروا الاَّ والعدوّ مقابلهم . فهجمت عشيرة عثمان دجنا واتباعها هجمةً واحدة عليهم وهم قد اضناهم الجوع واعياهم التعب فقابلوهم مع ذلك بقلوب باسلة وقاتلوهم مستقتلين وقتلوا منهم ستة وثمانين رجلاً ثم اطبق العدو عليهم من كل جانب فلم ينجُ منهم الاَّ قاضي سنكات واربعة رجال وثلاثون امرأة .

وكان عددهم نحو خمسماية من رجال ونساء فقتل الاعداء الرجال وسبوا امرأة توفيق بك وباقي النساء وباعوهنَّ للعرب كما يباع الرقيق

وانتشرت اخبار هذه الكسرات في داخليَّة السودان فزاد المصاب وعمَّت الثورة كل الانحاء وامست اكثر مدنها في حالة الحصار. وعادت حامية فشوده الى الخرطوم فبلغ عدد العساكر فيها نحو ثلاثة آلاف نسمة

الفصل الثامن

في ارجاع غوردون الى السودان

لمَّا حلَّ الوبال بجيش هكس وانمحقت القوَّة المصرية في نواحي سواكن اتفاقم الخطب على مصر فترجح للحكومة ان افتتاح السودان بالقوَّة والعنفوان ضرب من المحال وهي على ما بلغت اليهِ من ضعف القوَّة وتضعضع الاحوال فلجأَت الى الحزم والتدبير واعتمدت على اخلاء السودان بعد استرجاع عساكرها من حصونها. وكان عدد العساكر في السودان وقتئذٍ واحدًا وعشرين الف مقاتل وعدد المدافع اربعة وثمانين. فقدَّر بعضهم انهُ يلزم اربعة آلاف جمل لنقل الذخائر من كسالا الى الخرطوم. وحكم ديوان الحربية بان مسير العساكر برًّا من بربر الى وادي حلفا ثاني المستحيل فلا بدَّ من تسفيرهم بحرًا ويلزم لذلك الف وثلاثماية مركب. وعقد التجار حينئذٍ جلسةً في الاسكندرية فوجدوا بعد البحث والاستقصاء ان عدد المسيحيين الذين في السودان لا ينقص عن الخمسة عشر الفًا وعدد المصريين المسلمين اربعون الفًا وعدد المحلَّات التجاريَّة فيها الف للاجانب من اوربيين وغيرهم وثلاثة آلاف للمصريين وان قيمة الصادر والوارد من تجارتها ثلاثة عشر مليون جنيه انجليزي. وان اخلاء

السودان لا يتمُّ في اقل من سبعة اشهر وذلك يستغرق نفقة مليون جنيه

وفي اليوم الثامن عشر من يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٨٤ انتدبت الحكومة الانكليزية غوردون باشا ليذهب الى السودان وامرتهُ بان يرفع اليها تقريرًا مفصَّلًا يستوفي فيهِ كل الكلام على الامور الآتية وهي: اولاً حالة السودان الحربية والوسائط المناسبة لسلامة مَن بها من الحامية المصريَّة وسكان الخرطوم الاوربيين. وثانيًا احسن طريق لاخلاء داخليتها وتثبيت حكومة منظمة على سواحل البحر الاحمر. وثالثًا اقوى الوسائط لابطال تجارة الرقيق التي عادت الى ما كانت عليهِ بعد انتشار الثورة. ورابعًا اسلم طريق لانسحاب الجيش المصري بلا خسائر

فبارح غوردون انكلترا مستصحبًا الكولونل ستيورت كاتم اسرارهِ ورئيس اركان حربهِ. وقيل ان اللورد ولسلي حمل صندوقهُ الى عربة القطار واللورد غرانفيل قطع لهُ تذكرة السفر في القطار ودوق كامبردج فتح لهُ باب العربة. وسافر غوردون محفوفًا بالعزّ والاعتبار من بلادهِ لتروى رمال السودان بدمائهِ

ومَنْ كانت منيتهُ بارضٍ فليسَ يموتُ في ارضٍ سواها

فوصل الى القاهرة في الخامس والعشرين من يناير (ك ٢) واخبرهُ السير افلن بارنج ان الحكومة الانكليزيَّة قد فوَّضت اليهِ امر اخلاء السودان وانها لا تقتصر على التعليمات المعطاة لهُ في لندن وانها تطلب منهُ اعادة حكم الامراء الذين كانوا يحكمون السودان عند فتح المغفور لهُ محمد علي باشا لها. واجازت لهُ ابقاء العساكر فيها حتى يتسهَّل لهُ إخلاؤُها على طريق الأَمن والسلامة فلا يتكبَّد الَّا اقل ما يمكن من خسارة المال والرجال

وفي اليوم التالي تشرَّف بمقابلة الخديوي المعظَّم فاصدر لهُ الفرمان بتعيينهِ حاكمًا عامًّا على السودان وفوَّض اليهِ فيهِ امر اخلاء السودان وسحب العساكر والمتوظفين منها واستصحاب كل مَن اراد من الاهلين المجيء الى مصر وان ينشئ حكومة منظمة بعد ذلك في كل مديريَّة اذا تيسَّر لهُ

ثم سافر غوردون الى اصوان في اليوم السابع والعشرين من يناير (ك٢) وبعث منها برسالة برقية الى الخرطوم يقول فيها "انتم رجال لا نساء. فلا تخافوا لاني قادم اليكم". ولمَّا وصل الى كوروسكو في اليوم الثاني من فبراير (شباط) ركب منها برًّا قاصدًا بربر فوصل اليها في اليوم التاسع منهُ . وهناك اباح للاهالي جهارًا المتاجرة بالرقيق وبيَّن ان الحكومة لا تعارضهم في ذلك قائلاً ان السودان اصبحت دولة مستقلة عن مصر وان المهديّ أُقيم سلطانًا على كردوفان وفي اليوم الثالث عشر من الشهر المذكور سافر الى الخرطوم فوصل اليها بعد مسير خمسة ايام واستقبلهُ الاهالي بالفرح والبشاشة وتواقعوا على يديهِ ورجليهِ يقبلونها فخاطبهم قائلاً "اني اتيتُ لتخليص السودان من الرزيئة التي رُزئت بها ولم اجئ محفوفًا بالعساكر بل اتكلتُ على معونة الله فلا احارب الاَّ بسلاح العدل وليكن معلومًا انهُ من الآن فصاعدًا لا يكون في البلاد باشبوزق يعيثون ويفسدون". فوقع كلامهُ موقع الاستحسان عند الاهالي واستتبت الراحة في الخرطوم بعد ان شاعت القلاقل فيها

ثم انهُ عيَّن يومًا لمقابلة مَنْ احبَّ مقابلتهُ من الاكابر والاصاغر فاجتمع عندهُ جمع عظيم وهم ينادونهُ يا ابا السودان ومخلصها وقيل ان كثيرات من النساء الفقيرات تراكضنَ وتزاحمنَ لتقبيل قدميهِ حتى القينهُ على الارض

مرتين . ثم احرق علانيةً كل دفاتر الحكومة المتضمّنة حساب ضرائبها واتبعها بالكرابيج التي كان يجلد بها مَن تأخَّر عن دفع الضريبة . والَّف مجلساً من كبار الوطنيين ومشايخهم وزار المستشفى ودار الاسلحة (الترسخانة) والسجون واطلق السراح لكثيرين من المسجونين بعد ما تأكد براءة اكثرهم وبمثل ذلك اجتذب اليهِ قلوب الاهالي واكتسب حبهم وزعم انهُ قضى وطرهُ وفاز بالغرض . وفي اليوم الثاني والعشرين منهُ ارسل الى مصر جانباً عظيماً من حامية الخرطوم وكان يقصد ان يسحب العساكر المصريّة ويترك حامية من العساكر السودانية فقط في الخرطوم . واعتمد على اخلاء السودان حالاً ولذلك طلب ان يُرسَل زبير باشا اليهِ فيتركهُ حاكماً في السودان بعدهُ فلم يتمَّ لهُ ما طلب

ولم يمضِ زمان طويل حتى رأى غوردون ان ما لقي من الهدوّ والسكينة لم يكن الاَّ لمحة فائت وان الثائرين عادوا الى ما كانوا عليهِ من التعدي وسفك دماء العباد

فكتب الى انكلترا يشير بوجوب كسر شوكة المهدي قبل اخلاء السودان قائلاً ان المهدي اذا ملك الخرطوم تجاوزها الى حدود مصر واقلق الحكومة المصرية مدَّةً طويلة فيجب قهرهُ لتأمين غوائلهُ وطلب من الحكومة الانكليزية ان تمدَّهُ لاجراء ذلك بمئة الف جنيه غير التي اخذها قبلاً وان تبعث مئتي جندي من الهنود الى وادي حلفا وضابطاً الى دنقلة يتظاهر بانهُ قادم للتفتيش عن المحلاَّت المناسبة لحلول الجيوش القادمة فيها واشار بترك سواكن ومصوّع

وكان غوردون قد ارسل الكولونل ستيورت برسالة وديَّة الى القبائل الساكنة على سواحل البحر الابيض واصحبهُ بمئة وعشرة من العساكر السودانيين على باخرتين فاستقبلهم الاهلون بالترحيب حتى وصلوا الى بلدة

الشيخ طوخ ابراهيم وهي تبعد عن الخرطوم نحو الستين ميلاً فوجدوا فيها الفًا وخمسماية مقاتل من قبيلة البقارة وكلهم شاكو السلاح فتوعدهم هؤُلاء بالقتال اذا نزلوا في تلك الديار. وكان الشيخ طوخ ابراهيم في العبيد فارسلهُ المهدي الى هناك ليمنع مجيءَ الكولونل ستيورت اليهِ. واما ستيورت فنشر راية السلم في باخرتهِ وحاول ان يجتمع برؤَساء الثائرين ويحادثهم ولكنهُ لمَّا يئس من ذلك وفات الاجل الذي ضربهُ لهُ غوردون باشا عاد الى الخرطوم واخبر بما سمع وأَبصر

وفي اليوم الثاني من مارس (آذار) عاد غوردون فارسلهُ الى الشطوط المجاورة للخرطوم واوصاهُ ان يجاهر بالسلم وان يخبر السكان بان غوردون لا يقصد لهم الاَّ الخير فلم ينجع كلامهُ فيهم وعاد كما عاد اولاً. وبعد مضي عشرة ايام ابتدأَ العصاة في الهجوم على الخرطوم فتقدم اربعة آلاف منهم الى شاطئ النيل واعترضوا بين الخرطوم وحلفايا وهي قرية الى شماليها وقد عسكر فيها ثمانماية عسكري . وهجموا يومًا على ثلاث بلوكات من عساكر غوردون وهم يقطعون الحطب فشتتوا شمل مئَة او مئة وخمسين منهم وغنموا ثماني مراكب. واتخذوا نهر النيل متراسًا وتحصنوا في شطوطهِ فتعذَّر على غوردون ان يسحب الحامية المحصورة في حلفايا بلا قتال ولا سفك دماء فارسل الفًا ومايتي مقاتل في المراكب فعادوا بالحامية ولم يبقَ فيها الاَّ خمسماية وغنموا من العدوّ سبعين جملاً وثمانية عشر حصانًا وقليلاً من السلاح والمواشي . وبقي العدوّ مستوليًا على حلفايا فاعتمد غوردون على طردهم منها فوجَّه عليهم الفي مقاتل من عساكرهِ في صبيحة اليوم السادس عشر من مارس (آذار) وكان العدوّ منتشرًا على موازاة البحر الازرق مسافة ميلين حتى ينتهي الى شلال رملي كثير

الشجر فلما اقتربت منهم العساكر تواروا وراء التلال وفي خلال الاشجار فاختفوا عن الابصار ولما وصل الجيش اليهم اطلقت فوارسهم عنان خيولهم وسدَّدوا رماحهم الى صدور العساكر بل الى ظهورهم لان العساكر لما رأَت فوارس العدوّ مقبلة ولَّت الادبار ولم تصبر على قتال ولا على دفاع . وتبعهم ستون فارس فقط بالسيوف والرماح وفتكوا بهم فتكًا ذريعًا وهم فارُّون وخرج مشاة العدوّ على اثر فوارسهم يقتلون بدوس الرجل وضرب السيف مَن بقي من العساكر جريحًا على بساط الغبراء واستمرُّوا كذلك مسافة ميلين ثم عادوا الى حصنهم وقد غنموا مدفعين وكثيرًا من البنادق والرصاص وقتلوا مائتي جندي

ولما عاد العساكر من المعركة صرخوا بلسان واحد ان قائديهم الكبيرين خانا وغدرا وانهما هما اللذان قاداهم الى الهلاك . وكان اسم القائدين حسنًا وسعيدًا وقد رقَّاهما غوردون الى رتبة باشا ووجههما في هذه الحملة فلما هجم العدوُّ على العساكر امراهم بالانهزام وكانا اول من اعمل السيف برقابهم فشاهد بعضهم سعيدًا قد استلَّ سيفَهُ عند هجوم فوارس العدوّ وابتدر العسكر ضربًا بهِ حتى وصل الى مدفعٍ فضرب عنق الجدي الذي كان يحشوهُ . وشاهد ايضًا حسنًا يضرب بسيفهِ العساكر المدفعيَّة (الطوبجيَّة) وروى بعض العساكر المصريين الذين شهدوا هذه المعركة الرواية الآتية عن محاكمة هذين الخائنين وقتلهما فقال . "أُلقي القبض عليهما فقيدوهما بالسلاسل واتوا بهما الى غوردون باشا . ثم حوكما في مجلسٍ حربي فظهر لدى التحقيق انهما كانا يراسلان العدو ووافقا الخلل والاضطراب في صفوف العساكر في المعركة الاخيرة . وقتلا ضابطًا

وجماعة من العساكر المدفعيَّة وغيرهم . ووجدوا في منزل حسن باشا كثيرًا من البنادق والذخائر وثبت عليهما انهما كانا قد اشتركا في سرقة راتب العساكر عن شهرين كاملين وكانا قد تسلَّماهُ لدفعهِ لهم ولذلك حُكِم عليهما بان يقتلا قتل الخائنين في الحرب على حسب القانون العثماني وهو ان يقطعا اربًا اربًا وفي الثاني والعشرين من مارس (آذار) نفّذَ ذلك الحكم فيهما فأُحضرا مكتوفين الى ساحة فسيحة امام السجن ورُبطا الى الحائط بالسلاسل والقيود . ثم قُرئت صورة جنايتهما وحكم المجلس الحربي عليهما على مسمع جم غفير من كبار الضباط والمستخدمين والعساكر ولكن غوردون لم يكن حاضرًا . ثم صدرت الاوامر بتنفيذ الحكم الى اثنين من العساكر بيد كلٍّ منهما فاسٌ حادَّة فقطَّعاهما تقطيعًا . مبتدئين من ارجلهما وايديهما ولم يموتا الاَّ بعد ان ضُرِبا آخر ضربة" انتهى

هذا وكان غوردون قد ارسل الى المهدي كتابًا بعد وصولهِ الى الخرطوم بيسير يقول لهُ فيهِ انهُ يفضّل السلم على القتال وانهُ يسميهِ سلطانًا على دورفور الغربيَّة ويبيح تجارة الرقيق وينزل الضرائب والرسوم الى نصف ما كانت عليهِ وطلب منهُ ان يطلق الاسرى . وانهُ اذا احبَّ المهدي القتال فغوردون قادرٌ عليهِ ولكنهُ لا يرى موجبًا لهُ وطلب منهُ ان يتربَّص عشرة اشهر وحينئذ فاما ان يشهر حربًا عليهِ او ان يترك لهُ السودان كلها ويقيم عليها حواجزَ حصينة . وارسل لهُ مع الكتاب حزامًا وطربوشًا وقفطانًا وغيرها من الملابس والهدايا . فلما وصل كتابهُ الى المهدي جمع رؤساء قومهِ وذاكرهم فيهِ عشرة ايام ثم كتب جوابًا ومزَّقهُ وعادوا فتذكروا عشرة ايام أُخرى وكتب الجواب ومزَّقهُ ثانيةً . وبعد ثلاثة ايام أُخر كتب جوابًا واعطاهُ الى رسولين من

رجاله وردَّ لغوردون الملابس التي ارسلها اليهِ وارسل لهُ معهما جبَّة من لباس دراويش المهدي. فجاء الرسولان الى الخرطوم ودخلا امام غوردون بسلاحهما لانهما ابيا تسليم سلاحهما قبل الدخول ووقفا بين يديهِ وايديهما على قبضتي سيفيهما. ففضَّ غوردون الجواب وقرأهُ فاذا المهدي يطلب منهُ ان يتديَّن بدين الاسلام ويتوعدهُ بطول الحرب والقتال وانهُ لا يقتصر على الخرطوم. بل يتجاوزها الى غيرها اذ هو المهدي المنتظر. واما الاسرى فقال انهُ يعتني بسلامتهم ويحافظ عليهم عندهُ

فتحقَّق غوردون حينئذٍ انهُ لا بدَّ من محاربة المهدي اذ لا سبيل الى مصالحتهِ فجعل يرسل بواخرهُ بالمدافع الى البحر الازرق كل يوم فتطلق القنابل على من يكون من الاعداء على الشاطئ واما الاعداء فكانوا يقتربون من الخرطوم يومًا فيومًا ويطلقون بنادقهم عليها ويستفاد مما كتبهُ غوردون في التاسع والعشرين من مارس ان عددهم لا يتجاوز الفًا وخمسمائة مقاتل ولكنهُ لم يكن يجسر ان يخرج اليهم خوفًا من انتشار سم الثورة في الخرطوم نفسها. وفي ذلك الحين كانت الاخبار الخارجيَّة قد انقطعت عن الخرطوم مدَّة ثلاثة اسابيع متوالية وجاهر باقي القبائل والعشائر بالعصيان فامست الخرطوم في حصار تام. وكتب غوردون منها رسالة في ٣١ مارس يحث الحكومة الانكليزيَّة على ارسال نجدة لكسر شوكة المهدي ويقول انهُ يستطيع الثبات على حصار الخرطوم مدَّة شهرين من الزمان ويطلب ثلاثة آلاف جندي من مشاة الاتراك والفًا من الخيالة لحسم مسألة السودان وقهر المهدي واخماد الفتنة التي أثارها

الفصل التاسع

الحملة الانكليزية في سواكن

لما بلغ دولة الانكليز خبر انكسار المصريين في سواكن بعثت جنودها لانقاذ طوكار وولت الجنرال جراهم قيادتها فاتى سواكن مسرعًا واعتمد ان يتبع الخطة التي سار باكر باشا عليها للوصول الى طوكار فارسل عساكرهُ الى ترنكتات ولم يأتِ اليوم الثاني والعشرون من فبراير (شباط) الاَّ وقد تجمع فيها ثلاثة آلاف مقاتل. وشاع حينئذٍ في سواكن خبر سقوط طوكار والظاهر ان الاعداء احاطوا بها واطلقوا عليها نيران المدافع التي كسبوها من المصريين فارتعبت الحامية وفتحت للاعداء ابواب المدينة مع علمها بقدوم الحملة الانكليزية لانقاذها. وقد قيل انهُ كان عند الحامية نحو خمسة واربعين الف امن فشك الرصاص وكانت مؤلفة من ثلاثمائة مقاتل ولم يكن عدد العدوّ الاَّ الفًا . فاطلق النار على طوكار خمسة ايام متوالية الاَّ انهُ لم يلحق بالحامية الاَّ ضررًا طفيفًا قتل اثنين وجرح اثني عشر فقط ولم يكن ذلك ليستوجب تسليم الحامية ولذلك نسب الناس اليها الجبانة وضعف العزم وعدم الثبات

الاَّ ان هذا الخبر لم يثنِ الجنرال جراهم عن التقدم الى طوكار فانهُ ارسل في الخامس والعشرين من فبراير (شباط) فرقة من عساكرهِ الى الحصن الذي بناهُ باكر باشا كما تقدَّم آنفًا وكان العدوّ قريبًا منهُ فجعل يتقهقر عنهُ الهوينا كلما قرب منهُ فرسان الانكليز ثم جاء في اليوم التالي الفان من العدوّ حتى صاروا

امام الحصن واطلقوا الرصاص على النقط الخارجة من الجيش

وفي اليوم السابع والعشرين من الشهر المذكور انعقد مجلس حربي وقرر فيهِ أن تُرسَل للعدوّ رسالة ودّية ينصحونهُ فيها بالارعواء عن غيهِ والرجوع الى سواء السبيل ويتوعدونهُ بحرب هائلة اذا لم ينتصح واختاروا لابلاغ الرسالة الاميرالاي هرفي بك لانهم كانوا يثقون بشجاعتهِ وسرعة ملاحظتهِ في استكشاف اماكن العدوّ وحركاتهِ فركب الاميرالاي المذكور جوادهُ وحمل الكتاب ملصقاً بالراية البيضاء حتى وصل الى حصن باكر باشا فطلب من قائد الحامية ان يصحبهُ بجماعة من الفرسان لتدفع عنهُ العدو وتوصلهُ الى النقطة التي أُمران يضع الكتاب فيها . فاجابهُ قائد الحامية ان ليس لديهِ من عساكر الخيالة فارس وانهُ لا يأذن لهُ بالخروج الى جهة العدوّ وحدهُ اذ العدوّ محدق بالحصن من كل ناحية وهم قوم همج لا يعرفون المراد من الراية البيضاء ولا من سواها . فاستصعب الاميرالاي العودة الى ترنكتات دون انفاذ الاوامر التي أُمر بها واستخار الموت على الرجوع مخذولاً فصمم على الخروج الى العدوّ وحدهُ ووكل امرهُ الى مدبّر الامور ولذلك استأذن القائد أن يخرج على جوادهِ الى ما وراء الحصن بحجة استشراف تلك القفار فأذن لهُ ولما ابعد عن الحصن يسيراً اطلق لجوادهِ العنان واوغل في البيداء قاصداً العدو وليس لهُ رفيق غير الجواد والحسام . فلما رأى القائد منهُ ذلك علم انهُ يقصد تنفيذ الامر وحدهُ فقلق واشفق عليهِ من الموت ولذلك اتبعهُ بفرقة من المشاة تقتفي اثرهُ وتدفع العدوّ عنهُ . فما سارت الاّ القليل حتى عادت الى الحصن خوفاً من الهلاك دون جدوى لان الاميرالاي كان قد بعد عنها بعداً شاسعاً ولم يعُد في وسعها

انجادهُ فايقن قائد الحامية ان الاميرالاي هالك لا محالة . ولما غاب هرفي بك من الحصن وصار على مقربة من موقعة باكر باشا شاهد جثث القتلى وقد حامت عليها الجوارح فرآهُ الاعداء هناك وحملوا عليهِ افواجًا وسددوا نحو صدرهِ اسنتهم واطلقوا عليهِ الرصاص واجفل حصانهُ مذعورًا من تلك المناظر الهائلة فاعمل في شاكلتهِ المهاز فسار تحتهُ كالبرق حتى وصل الى النقطة المطلوبة فنزل عنهُ وغرز الراية في الارض وقد علَّق الكتاب بها وامتطى جوادهُ والرصاص يهطل حولهُ غزيرًا كالمطر ولكن لا يصيبهُ . ثم التفت يمينًا ويسارًا وتأمل في عدد العدوّ ومسالك تلك الاماكن حتى علم من امرها ما تيسَّر واطلق لجوادهِ العنان فانطلق بهِ يطوي صدور الارض على اعجازها والاعداء تتبعهُ وقد سبقهُ بعضهم وقطعوا عليهِ خطّ الرجوع فسلك بحكمتهِ سبيلاً نجا بهِ من ايديهم وعاد الى قومهِ في الحصن سالمًا فاستقبلوهُ بالاكرام والترحيب وفرحوا بنجاتهِ فرحًا عظيمًا بعد ان قطعوا الرجاء من لقائهِ واسفوا على فقد بَطَلٍ مثلهِ

ثم عاد الى ترنكتات واخبر الجنرال جراهم بانهُ انفذ اوامرهُ وأَوصل الكتاب وشرح لهُ عمَّا راهُ من قوَّة العدوّ وحركاتهِ فاثنى عليهِ الجنرال ثناء جميلاً واطنب بمدح شهامتهِ وشجاعتهِ وامرهُ في اليوم التالي ان يعود الى المكان الذي وضع الكتاب فيهِ ويأتيهُ بالجواب قائلاً لا يجترئُ على دوس تلك الارض الاَّ قدم ثابتة مثل قدمك . فامتثل الاميرالاي امرهُ وذهب بشرذمة من الفرسان فلم يرَ اثرًا للراية ولا جوابًا للكتاب فعاد واخبر الجنرال بذلك

وفي تلك الليلة حلَّت العساكر جميعها في حصن باكر باشا وكان عدد المشاة

منها ثلاثة آلاف والفرسان سبعماية وخمسين والبحرية ماية وخمسة عشر وعدد مدافعها اربعة عشر فامرها الجنرال بالتقدم على العدو في اليوم التالي فلما اصبح الصباح انتظموا على هيئة مربع (قلعة) ووضعوا الجمال والبغال الحاملة ذخائر المدافع والبنادق ومهمات المستشفى في وسط المربع وأرسل بلوك من الفرسان طليعة امام المربع وسار الباقي وراء القسم الشمالي من قاعدة المربع. وسار الجيش كذلك ميلاً واحداً عن حصن باكر باشا فرأوا بغتة مئات من العدو امام المقدمة وعلى الميمنة والميسرة. وفي الساعة التاسعة صباحاً اطلقوا بنادقهم على العساكر فلم تأتِ بضرر نظراً لبعد المسافة ثم جعلوا يتقهقرون كلما تقدمت الحملة. واستمرّت العساكر حتى قطعت ثلاثة اميال من حصن باكر وحينئذٍ شاهد الانكليز مركزاً محصناً بالرمال على مسافة منهم والاعداء تجتمع فيهِ وقد ضعفت نيران البنادق فعزفت الموسيقى الانكليزية بعض الحانها الحماسية وتقدم العساكر بقدم ثابتة الى ان صاروا على قيد ثمانماية يردٍ من مركز العدوّ فاغارت طليعة الفرسان على العدوّ حينئذ واكرهتهُ على ملازمة حصونهِ ثم عادت الى باقي الفرسان وراء المربع وعلى مسافة نصف ميل منهُ. ثم صدر الامر الى المربّع بالوقوف فوقف وقرّ رأي الجنرال ان يهجم على الجانب الايسر من حصن العدوّ فسار الجنود الى ذلك الجانب وفتح العرب عليهم افواه مدافع كروب التي غنموها من المصريين والذين كانوا يطلقونها مدفعية حامية طوكار وكانت قنابل المدافع تمرُّ في بادئ الامر فوق رؤوس الجيش فلا تصيبهم بضرر الاَّ انهُ لم يمضِ الاَّ القليل حتى اصاب العرب الغرض فسدَّدوا مدافعهم نحو الانكليز وجرحوا كثيرين منهم واصابت قطعة وجه المرحوم باكر باشا فجرحتهُ جرحاً.

بليغًا ولكنهُ بقي على ظهر الجواد الى آخر القتال . واطلق العدوُّ بنادقهم ايضًا على الجيش فاكثروا من اصابتهِ ذلك كلهُ والانكليز لا يطلقون عليهم عيارًا واحدًا حتى قطعوا الجانب الشمالي من حصونهم وتجاوزوها مسافة الف يرد ثم وقفوا عند انتصاف النهار وتمددوا على الارض . وانسكبت قنابل مدافعهم ورصاص بنادقهم على العدو فانسكابًا فشيئًا واسكتت مدافعهُ بعد ما نفد رصاصهُ وضرب الانكليز بالنفير فتقدَّم جنودهم نحو حصن العدوّ وكان منيعًا قد كثرت خنادقهُ ومتاريسهُ واستتر العرب فيها وتمكنوا في مراكزهم لا يخرجهم منها الاَّ الموت ولم يكن عدد مَن ظهر منهم اكثر من الفي رجل وكان المستترون في الحصن عددًا عديدًا غير اولئك

وبينما كان مربع الانكليز يتقدَّم ورصاصهُ يفتح لهُ الطريق خرج جماعة من العرب من الخنادق من وراء المتاريس وقد اشهروا الاسنَّة وجرَّدوا السيوف وانقضُّوا عليهم كالنسور فعجب الانكليز من ثباتهم وشجاعتهم وعدم اكتراثهم بالموت واقتحامهم نار الوغى . ولكنهم ابادوهم برصاصهم حذرًا من شرّ فتكهم . قيل انهُ قُتِل عدد وافر منهم على مسافة عشر خطوات فقط عن المربَّع فانهم كانوا اذا اصابهم الرصاص يسدُّون الجرح بايديهم ويحملون على المربَّع بسلاحهم حتى يجيئهم حتفهم . وما زال جيش الانكليز يتقدَّم حتى امتلك الحصن بعدما اعياهُ قتال العرب ولاسيما لان كثيرين كانوا يستترون بين القتلى وفي الخنادق ويكمنون حتى يمرَّ بهم المربع فيهجمون عليهِ كالذئاب الخاطفة ويختلطون بالعساكر ويديرون فيهم السيوف والحراب فيجرحون منهم ويقتلون ولذلك كثر جرحى الانكليز هناك وقُتِل بعضهم بعد تملكهم الحصن

ولما دخلوا الحصن رأوا قرية الطيب وآبارها فتقدموا اليها وكان على مسافة مائة يرد وراء الحصن بيت مبني بالاجر (الطوب) فالتجأ اليه العرب واطلقوا رصاصهم منهُ على الانكليز وما زالوا يقاتلونهم حتى قُتِل اكثرهم فيهِ وخرج الباقون منهُ عنوة . وفي الساعة الاولى بعد الظهر ولَّى العرب الادبار وتبعهم الانكليز ببنادقهم الى ان اوصلوهم الى آبار الطيب فوقف العرب هناك عن الانهزام ودافعوا دفاعهم الاخير ثلاث ساعات او اربعًا وهم في قتال عنيف ثم كسرهم الانكليز وامتلكوا الآبار والبيوت بما فيها ولم يبقوا على احدٍ من جرحى العرب ولم يستطيعوا ان ياسروا احدًا منهم لانهم كانوا يحاربون حتى آخر رمق من حياتهم فالجريح منهم اذا نظر عسكريًّا مقبلاً عليهِ يهجم عليهِ قاصدا قتلهُ بكل واسطة تيسرت حتى التزم الجنود ان يكونوا على حذر دائم ويضربوا بسيوفهم كل جثة يمرُّون بها . واما فرسان العرب فكانت تشن الاغارة على صفوف العساكر تشجيعًا لباقي المقاتلة ولكن رصاص الانكليز بدَّدها تبديدًا ولم يبقَ منها الاَّ طويل الاجل

وفي بدء القتال كان فرسان الانكليز يتبعون المشاة ويهجمون على نقطة منفردة من العرب فلما انهزم العرب من اول الحصن اقتفت الفرسان اثرهم وشطروا شملهم شطرين وشاغلوهم زمانًا حتى ادركهم مربع المشاة فبرز اليهِ نحو ثلاثين فارسًا من فرسان العرب على خيول غير مسرجة وشنوا الاغارة على فرسان الانكليز بقلوب اصلب من الصوَّان فخرقوا صفوفهم دون ان يضروا بهم ضررًا يذكر واما مشاة العرب فازعجوا خيالة الانكليز لانهم كانوا يكمنون لهم في الوعور والادغال ويذعرون خيولهم وهي مغيرة بهم فتنفر في عرض البر ثم يطعنونهم برماحهم او

يرمونهم بحرابهم ولم تقدر فرسان الانكليز على الوصول اليهم لقصر سيوفهم ولذلك استجلب الانكليز نحو ستماية حربة من حراب الاعداء وسلحوا فرسانهم بها بعد تلك الواقعة وقُتل من الانكليز في الطيب ثلاثون وجُرح مئة وخمسون واما العرب فقدر عدد قتلاهم بالفين وثلاثماية

وقامت جنود الانكليز من الطيب في صباح اليوم التالي قاصدة طوكار فوصلت اليها في الساعة الرابعة بعد الظهر دون ان تلتقي باحد من رجال العرب ولما دخلت المدينة وجدت ان العدو قد اخلاها هاربًا وترك فيها نحو سبعين رجلاً من الحامية التي سلمتهُ المدينة . وفي اليوم الثاني من مارس (اذار) بلغ الجنرال جراهم ان العرب قد تجمعوا في قرية دبّة وهي على مسافة خمسة اميال من طوكار فركب اليها ببطانتهِ وفرسانهِ ولما وصلوا اليها لم يجدوا احدًا منهم ولكنهم وجدوا مدفعًا والفًا وخمسماية بندقية وذخائر كثيرة ومهمات حربيّة مّما غنمهُ العرب في واقعة باكر باشا فاتلفوها كلها

وعلم الانكليز من رجال الحامية انهُ لما استلم العرب طوكار اساءوا معاملتهم واستعبدوهم وكتفوا المدفعية منهم بالحبال واخذوهم الى الطيب ليقاتلوا معهم وقتلوا كل من حاول الفرار منهم بحد السيف

ثم عاد الجنرال جراهم بجيشهِ الى سواكن واستصحب معهُ حامية طوكار وسكانها المصريين واتفق مع الاميرال هيوت على مخابرة القبائل بالصلح فارسلوا الى عثمان دجنا زعيم حزب الثائرين والى سائر مشايخ القبائل يطلبون اخماد نار الثورة ويتهددونهم بالمدافع الانكليزية اذا لم يجيبوا طلبهم الى الصلح. فاجابهم عثمان دجنا انهُ لا بدَّ من القتال وان الفصل بين الفريقين لا يكون الاَّ

بالفيصل البتَّار ولذلك سار جيش الانكليز من سواكن في الحادي عشر من مارس (اذار) قاصداً معسكر زعيم العصاة في وادي طماي الى شرقي سواكن على مسافة سبعة عشر ميلاً منها . فوصل الى محل يُسمَّى زريبة باكر (نسبةً الى المرحوم باكر باشا بانيها) فبات فيها تلك الليلة . وفي صباح اليوم التالي أُرسلت طليعةٌ من الفرسان لاستطلاع احوال العدوّ ومركزه ثم تبعهم بقيَّة الجيش في الساعة الأولى بعد الظهر . وسار المشاة على هيئة مربعين موازيين يبعد احدهما عن الآخر خمساً وعشرين خطوةً ووُضعت الذخائر والمياه بينهما وانتشرت الفرسان حولهما على مسافة ميلين منهما وسار اساس الخيالة وراءهما ثم قصد الفرسان تلالاً صغيرة في الجهة الجنوبيَّة الغربية فوصلوا اليها بعد سير ستة اميال ووجدوها خالية من العدوّ ولكنهم ابصروا منها العدوّ محصناً في تلال أخرى تبعد عنها ميلين . ولمَّا وصل المشاة الى لحف التلال الأولى امرهم الجنرال جراهم ان يسيروا الى الجهة الجنوبية ويقطعوا الادغال ويبنوا بها زريبة على قطعة من الرمال ليبيتوا فيها . وامر الفرسان ان يستكشفوا عدد العدوّ ومركزهُ فعادوا واعلموه بانهم شاهدوا عدداً عديداً من الهجانة والفرسان والمشاة متفرقين بين التلال . ثم امرهم فعادوا الى زريبة باكر باشا حيث باتوا وسقوا الخيول . واما المشاة فضمَّهم الى مربع واحد فاوقدوا النار وتعشوا . ثم لاح لهم العدوّ على مسافة الف يرد من المربع ورماهم بالرصاص فقابلهُ مدفعيَّة (طوبجيَّة) الانكليز بمدافعهم وبددوا شملهُ . ثم خرج احد ضباط الانكليز البحرية من معسكره وقصد حصون العدوّ تحت جنح الظلام فوجدهم نياماً . فعاد واخبر الجنرال ان العدو لا يقصد الهجوم على الجيش اذ انهُ ليس على

شيء من الاستعداد فامر الجنرال العساكر بالمبيت فناموا

وبعد نصف الليل بساعة من الزمن قرب العدوّ الى مسافة الف يرد من المربّع واطلق عليه البنادق فقامت العساكر الى السلاح وتمددت على الارض وهي لا تطلق عيارا واحدا صابرة حتى يصير العدوّ على مقربةٍ منها امتثالاً لاوامر الجنرال وكان الرصاص يمر فوق رؤوسها ولا يصيبها بضرر ولم يقتل منها الاّ رجلٌ واحدٌ وجُرح ضابط وجنديان . وأَمن الجنرال هجوم الاعداء عليه بغتةً في ظلام الليل اذ كانت الليلة مقمرةً . ولكنَّ العساكر تضايقت من الانتظار وتمنّت طلوع النهار . ولما لاح الصبح تقدّمت فئة من الاعداء طالبة المربع ولم تسر الاّ القليل حتى جاءتها القنابل ففرّقت شملها وقتلت خلقًا كثيرًا منها . وانقلب العدوّ راجعًا الى آبار طماي . وحينئذٍ جلس الجنود لتناول الطعام وانتهم الفرسان من زريبة باكر باشا

وفي الساعة السابعة صباحًا تقدّم الفرسان في مقدمة الجيش للاستطلاع فجالوا طويلاً يفتشون الادغال فلم يروا الاَّ شرذمات صغيرة من العدوّ ولذلك ظن الانكليز ان العرب عدلوا عن القتال . فاصطفّت عساكر المشاة على هيئة مربّعين وسار احدهما عن يمين الآخر متقهقرًا عنهُ قليلاً (تدر بجلمه). ولم يبعدوا حتى شاهدوا طلائع الخيالة تناوش الاعداء في المقدمة فصدرت الاوامر للخيالة بالعود الى ميسرة الجيش وانكشف لهم العدوّ في عددٍ عظيم جدًّا بعد ان ظنَّ الانكليز انهم ولّوا الادبار ثم حملوا على الجيش ولسان حالهم يقول

تحاولُ مني شيمةً غير شيمتي وتطلب مني مذهبًا غير مذهبي

فوقف المربع الاول وقابلهم بالقنابل فلم يصدّهم الاّ هنيهة يسيرة وذلك

لانهُ لما رأى امراء القبائل ان قنابل الانكليز قد فتكت في رجالهم واوقعت الرعب في قلوبهم حملوا في مقدمة الرجال حملةهائلة واعلوا الصياح وجرَّدوا السيوف واشرعوا الاسنة واستخاروا الموت في القتال على العيش في الهزيمة . فاشتدت قلوب رجالهم وحملوا معهم واطلقوا رصاصهم على المربع فهطل على وسطهِ كوابل المطر حتى قال الانكليز انهُ لو سدَّد الاعراب الرمي لما ابقوا عشر عددهم . وتقدم العساكر لملاقاة العرب حتى قاربوهم فهجم ضلع المقدمة عليهم بحراب البنادق واسرع في المسير واما بقيَّة اضلاع المربع فلم تجسر ان تتبعهُ لاشتغالها بدفع حملات العرب عنها اذ شاغلوها من كل جانب كما شاغلوا المقدمة فالتزمت ان تمشي الهوينا ولذلك انفصل ضلع المقدمة عن المربع واتسعت المسافة بين عساكر الجوانب فتمكَّن العدوّ من خرق المربع بقلوب لا ترهب الموت وسيوف صارمة تفل الحديد . ثم وقف ضلع المقدمة وحاول القوّاد ان يصلوهُ بالمربع بعدما سبق السيف العذل فان العرب دخلت وسط المربع والتحمت بالانكليز التحام الحابل بالنابل فتقهقر العساكر وهم يقاتلون قتالاً شديدًا وأُكره المدفعية الذين كانوا في وسط المربع على ترك مدافعهم وهم راجعون فاغتنمها العرب . وأَمن العرب شر رصاص الانكليز وبنادقهم واتصلوا الى ما كانوا يتمنونهُ من الصدام والالتحام فادار وا فيهم السيوف وحراب السودان حتى سقوا الارض بدمائهم وكسوها حلة من الارجوان وصرعوا الانكليز وحيروهم بخفتهم وسرعة ضربهم وطعنهم وخدمهم السعد بكون سلاحهم من الفولاذ الذكر الذي لا يقف امامهُ لحم ولا عظم وحراب الانكليز من الفولاذ اللين الذي ينعقف متى أصاب صلبًا كالعظم فلا يصلح بعد

ذلك للوخز والطعن

هذا ما كان من المربع الاول واما المربع الثاني فكان على قيد خمسماية يرد من الاول وهو يتقدم اليهِ بقدمٍ ثابتة ودمٍ بارد كانهُ يستعرض في ساحة التعليم ولا عدو امامهُ ولا قتال. وكان مدفعية البحرية يسيرون امامهُ فلما صدر لهم الامر اطلقوا القنابل وفتحوا على العدو ناراً دائمة فقتلت كل حي امام مربعهم . وحمل عليهم العرب بجنان ثابت وعزيمة ماضية كما حملوا على المربع الاول ولكنَّ رصاص المربع شواهم شيأً ولم يبقِ على احدٍ من الذين دنوا منهُ . وما زال على ذلك حتى وصل الى المربع الاول وحماهُ برصاصهِ فتمكن قوَّاد المربع الاوَّل من تشكيلهِ ثانيةً حينئذٍ وحمل المربعان معًا متعاضدين وسددوا بنادقهم على العرب ففتك فيهم فتكًا ذريعًا وصدوهم عن التقدم واسترجع الانكليز حينئذٍ المدافع التي غنموها منهم . ثم ظهر عدد كثير من الاعداء كانوا كامنين في وادٍ صغير امام الموقعة وهجموا على المربع فتلقتهم العساكر برصاص كثير بدد شملهم ثم تجمعوا وهجموا على ميسرة الجيش فحمل عليهم الفرسان ونزلوا عن خيلهم واطلقوا عليهم البنادق فاماتوا عددًا عظيمًا منهم وشتتوا من نجا بين الآكام والادغال حيث ثبتوا حتى طاردتهم الخيالة واخرجتهم منها عنوةً واقتدارًا

وجمع الجنرال جراهم عساكرهُ في الساعة العاشرة ونصف واراحهم قليلاً من اتعاب القتال ثم تقدَّم بهم الى آبار طماي وهي على مسافة ثلاثة اميال من الموقعة. وكان العدوّ يتجمع على امد بعيد فامر المدفعية ان يرموهم بالقنابل ففرقوا شملهم قبل ان تصل العساكر اليهم . وكان الظمأُ قد اشتدَّ بالعساكر

والخيول فلما وصلوا الى الآبار في منتصف النهار وردوا الماء ورود الايائل التي انهكها الظمأ . ثم تقدموا الى معسكر عثمان دجنا زعيم العصاة وكانت سكانهُ قد اجلت عنهُ فاحرقوهُ وعادوا الى زريبة قرب مكان الواقعة ليبيتوا فيها. واما الاعداء فالتجأُوا الى رؤوس الآكام واختبأُوا فيها

وقُتل من الانكليز في تلك الواقعة خمسة ضباط ومائة وخمسة رجال وجُرح ثمانية ضباط ومئة وعشرون رجلاً . وكان عدد العدوّ نحو اثني عشر الفًا فبقي ربعهم في ساحة الوغى بين قتيل وجريح

وقضت العساكر تلك الليلة في الزريبة على صوت انين الجرحى والمحتضرين والبنادق التي تطلق على مدافن الموتى من الجيش حسب الاصطلاح العسكري . وفي منتصف الليل جاء العرب يتفقدون قتلاهم ويرثونهم وهم يبكون ويعولون . وما زالوا على ذلك حتى طلع النهار فاصطفّت العساكر وتقدمت الى طمازي وهي قرية كان فيها شيءٌ كثير من ذخائر المدافع والبنادق التي كسبها العدوّ من الجنود المصريّة فاحرقها الانكليز كلها واستمرت النار تضرم فيها نحو نصف ساعة والعرب ينظرون اليها من رؤوس الآكام ولا يجترئُون ان يجددوا القتال لانكسار شوكتهم وانحلال قوتهم . ثم قفل الجيش راجعًا الى سواكن

وفي اليوم السابع عشر من مارس (اذار) اعلن الاميرال هيوت انهُ يجيز من يأتيهِ بعثمان دجنا حيًّا او ميتًا بمبلغ خمسة آلاف ريال فاتاهُ امرٌ من بلاد الانكليز بعد ثلاثة ايام بالغاء ذلك الاعلان لمغايرتهِ لمبادىء حزب الاحرار

وفي اليوم الخامس والعشرين منهُ خرج جراهم بجيشهِ من سواكن للقاء العرب ومقاتلتهم ثانية فكانوا يفرون من امامهِ ويلتجئون الى التلال كلما سمعوا اصوات المدافع وما زال يسير على تلك الحال حتى وصل الى طمانيب فاحرق بيوتها وعاد الى سواكن ثم ذهب بالجيوش منها

الفصل العاشر

وكان ذهاب الجيش الانكليزية من سواكن بعد واقعة الطيب وواقعة طماي مصيبة على القبائل المسالمة للحكومة اشمتت بهم الاعداء انصار المهدي وزادتهم جرأة وصلفًا لانهم لمَّا احسوا ان الانكليز بارحت تلك الديار قالوا قد خلا لنا الجو فاسرعوا الى التعدي والعدوان وفاجأوا اهل سواكن على مسافة قصيرة منها واستاقوا جمالهم وماشيتهم واحدقوا بآبار هندوب وطمانيب ليقطعوا الماء عن القبائل المسالمة فتصدَّى محمود علي شيخ الفضل لمقاومتهم وارسلت نجدة من الجنود المصريَّة الى حامية سواكن واستعدَّت المدرَّعتان الانكليزيتان الراسيتان في المينا لاطلاق المدافع وانزال العساكر الى البر اذا هجم العدوُّ على سواكن

وكان الاميرال هيوت قد ذهب في ٢ ابريل (نيسان) الى مصوَّع لمخاطبة ملك الحبشة في انقاذ كسالا وغيرها من الحصون الواقعة الى جنوبي الخرطوم وكانت كسالا حينئذٍ في ضيق شديد لمحاصرة الهدندوة لها وفرار الباشبوزق منها واحدًا بعد آخر ولذلك جعل حاكمها يطلب النجدة من الانكليز بلجاجة شديدة. وقبل ما وصل الاميرال هيوت الى مصوَّع انقطعت الاسلاك البرقيَّة وشاعت الاخبار بسقوط كسالا.

وفي تلك الاثناء اتت رسالة من غوردون الى الزبير باشا يعينهُ فيها وكيلاً لحكمدار السودان ويوصيهِ ان يعلمهُ بوصولهِ الى بربر فيرسل لهُ باخرتين عدا الباخرتين اللتين فيها ويضع لها الزبير شرفات من الحديد لوقاية الجنود الذين عليها ويستصحب ما امكن من قبيلة الفلاأيين ويناوش بهم العدوّ مناوشات عديدة دون ان يعرّض نفسهُ للاخطار على ان طلب غوردون لم يلقَ قبولاً إما لان الزبير نفسهُ رفضهُ او لانهُ لم يرخّص لهُ بقبولهِ اذ كان السر افلن بارنج معارضاً لذلك . وارسل غوردون الرسالة للزبير باشا وبعث اخرى الى السر صموئيل باكر بتاريخ ٨ ابريل (نيسان) يقول فيها ان عندهُ من المؤن والذخائر كفاية خمسة اشهر وان الحائلين دونهُ من العرب الفان وخمسمائة

وبلغ غوردون حينئذٍ عن لسان السر افلن بارنج ان الحكومة الانكليزية لا تنوي ارسال جنودها لفتح الطريق الى بربر ولكنها تخاطب قبائل العرب لعلهم يفتحونها . فعلم غوردون ان هذا المسعى لا يجدي فائدة ولذلك بعث الى صموئيل باكر المذكور يقول ألا يقرضنا اغنياء الانكليز والاميركيين مئتي الف ليرة انكليزية فنستأجر بها الفين او ثلثة من جنود الدولة العليّة ونرسلهم الى بربر . وبعد ذلك بثمانية ايام بعث برسالة برقيّة الى السر افلن يقول علمتُ منك ان قصدك ان لا تمدّنا بنجدة الى هنا او الى بربر وقد امسكت عني الزبير فلذلك اراني حرًّا ان افعل بحسب مقتضى الاحوال فسابقى هنا ما امكن وساخمد الثورة اذا استطعت والاَّ فاني ارجع الى خط الاستواء ويبقى العار على الذين اهملوا حامية سنار وكسالا وبربر ودنقله عالمًا حق العلم انهُ لا بدَّ لكم من

محاربة المهدي وقهره في ظروف وعرة واحوال عسرة اذا كان قصدكم حفظ السلام والطمأنينة في القطر المصري

وانما عزم غوردون واتباعهُ على النزول الى خط الاستواء كما ذكر في رسالتهِ البرقية الى السر افلن بارنج أملاً ان يدخلوا اراضي نهر الكنغو وينجوا عليهِ لانهُ لم يبقَ لهم سبيل آخر الى النجاة فانهم ارسلوا باخرةً الى بربر فحميت عليها نار العصاة وهي سائرة في النيل حتى اضطرَّت الى الرجوع في ٦ ابريل (نيسان). وصارت الخرطوم نفسها في خطر من سكانها اذ كان اكثرهم يميل الى التمرُّد وشق عصا الطاعة ولا سيما لان مضارب خيام العدو كانت على مقربة منهم وكان رصاصهم يصيب السراية نفسها. فاضطرت الحامية ان تضع اللغم في السهل الواقع بين العصاة والحصون صدًّا لهم عن الهجوم كما صدَّتهم عند هجومهم على ام درمان وتناقصت قنابل المدافع كثيراً حتى صار يخشى نفادها

وفي ٢٠ ابريل ارسل حسين باشا خليفة مدير بربر رسالة برقيَّة يقول فيها ان الاهالي في هرج ومرج والعصاة سيحدقون بنا من كل الجهات بعد زمان قصير فانعقدت جلسة في قنصلية دولة جنرالية انكلترا في القاهرة وقرَّ فيها قرار السرُ افلن بارنج والسر افلن ود والمستر اجرتن على ارسال حملة من الجنود المصرية والانكليزية لانقاذ بربر. وفي ٢٥ ابريل بعث المستر كزّي وكيل قنصلاتو انكلترا في بربر يقول انهم صاروا على اسوإ حال وبعث مدير بربر رسالة برقيةً يقول ان العصاة اقبلوا عليهم عن ضفتي النيل وصاروا بين النخيل والاشجار المحيطة بالبلد. ولم يعد في الامكان ارسال السُّعاة او الرسائل البرقية الى خرطوم . وفي ٢٨ ابريل ارسل المستر كزّي المذكور رسالة برقية

يقول فيها انهُ خرج من بربر قاصدًا كورسكو وان خلفاء المهدي يدخلون بربر من جنوبها وشرقها واما حسين باشا خليفة فبقي محصورًا في السراية . وشاع ان العصاة قاصدون مهاجمة اصوان وسياخذون كورسكو في طريقهم فتولى الرعب اهالي كورسكو وفرُّوا مذعورين الى اصوان

ولما امست السودان في هذه الحال من استفحال أمر العصاة وانحلال شوكة الحكومة المصرية فيها تنبهت الحكومة الانكليزية الى اصلاح ما ساءت حالهُ باغفالها وارسل غرانفيل ناظر الخارجيَّة الى المستر اجرتون في القاهرة بتاريخ ٢٣ ابريل يقول ارسلوا رسالة برقية بالارقام الى غوردون سلوهُ فيها عن القوَّة اللازمة لنقلهِ من الخرطوم وعن مقدارها وطريقها الى الخرطوم وزمان ارسالها . وفي اوائل ماي (ايار) ابتدأ الانكليز بالاستعدادات الحربيَّة . وفي العاشر منهُ ابلغوا رجالهم في القاهرة ان يهيئوا ما يلزم لارسال النجدة في شهر اكتوبر (تشرين الاول) لانقاذ الخرطوم وامروا ان يشترى اثنا عشر الف جمل لذلك

ولعلمهم ان بربر وكورسكو لا تستطيعان صبرًا على لقاء العدو طول تلك المدَّة كالخرطوم ارسلت الحكومة المصرية ١٤٠٠ رجل من رجالها الى اصوان رغبةً في منع العدو من افتتاحها . وبعث ايضًا مدير دنقلة (وهو شيخ العبابدة والبشارية) رسالة برقية في ١٢ ماي (ايار) يقول ان الناس في خوفٍ شديد وليس عندهُ من الجنود الاَّ اربع فرق و٢٠٠ من الباشبزق ولذلك يطلب من الحكومة ان تمدَّهُ بالرجال فاجابتهُ ان ارسال المدد غير ميسور فاذا لم يستطع لقاء العصاة برجالهِ فليهجروا المدينة . فابى المدير ان يهجر المدينة

وبعث ثانيةً يطلب المدد قائلاً اذا انجدتموني بالرجال فاني اعود فاغلب كل البلدان التي شقّت عصا الطاعة فارسلوا اليهِ نصف اورطة من الجنود المصرية في ١٦ ماي تحت قيادة ضباط من الانكليز

وصارت اصوان المحطة الاولى على حدود السودان لمراحل العساكر اذ تجمّع فيها عدد وافر من الرجال والذخائر ثم تقدّم جانب من العساكر الى وادي حلفا وتحصنوا فيها . ولكن سم الثورة كان ينتشر بسرعة زائدة في داخلية السودان ففي آخر شهر مايو (ايار) وردت الاخبار منبئة بسقوط الفشّار بعد محاربة العصاة سنتين متواليتين ثم بسقوط المسالمية على شاطىء النيل الازرق حيث كسب العدو ملء خمسين مركبًا من الزاد وسبعين صندوقًا من الذخائر والفين وعشرين بندقية وباخرة تدعى محمد علي . وفي ذلك الاوان كان العدوّ يكرّر الهجوم على الخرطوم وكان غوردون يصدّهُ بتأنٍّ وحكمةٍ . ولما فرغت منهُ النقود كتب قطعًا من الورق وتكفّل للاهالي بان الحكومة تدفع قيمتها من خزينة الخرطوم او مصر بعد مضي اجل مسمّى من تاريخها فوثق الناس بكلامهِ وتعاملوا بها تعاملهم بالنقود

ثم شاع خبر سقوط بربر وكان العدوّ قد احاط بها زمنًا طويلاً وحدثت مناوشات عديدة بينهُ وبين حاميتها وكان عددهم الفين وثلاثماية مقاتل وفي صبيحة اليوم السادس والعشرين من مايو (ايار) هجم العدوّ عليها وافتتحها عنوةً واقتدارًا واعمل السيف في الحامية والاهالي ولكنهُ اطلق سبيل النساء والاولاد وفي رواية أُخرى ان العدوّ اسر سنماية رجل من الحامية وعاملهم معاملة الرقيق وكان في خزينة بربر ثمانون الف جنيه مصري محفوظة لترسل

الى غوردون فاخذها العدوُّ

ويظهر ان الاميرال هيوت لم يستفد شيئاً من ذهابهِ الى الحبشة فان ملكها وعدهُ بارسال ثلاثين الف مقاتل من الاحباش لمحاربة المهدي ولكنهُ لم ينجز وعدهُ ولم يمضِ الاَّ القليل حتى شاع سقوط بعض القرى المحاصرة على حدود الحبشة

وقوي حزب الاعداء بعد سقوط بربر وزاد جراءة فكان يهجم في كل ليلة على سواكن والمدرَّعات الانكليزية تصدُّهُ باطلاق مدافعها وتنزيل رجالها الى حصون المدينة . وتكاثرت رسل المهدي بين كورسكو وحلفا ودنقلة يحثُّون القبائل المسالمة على شق عصا الطاعة ولذلك تجمع في اصوان الف وستماية مقاتل من الانكليز وثلاثة آلاف وخمسماية من المصريين وسلّمت قيادتهم للجنرال غرنفل (سردار الجيش المصري الحالي) وكان قد أُرسل في يوليو (تموز) لتحصين وادي حلفا وكورسكو . وهجم نحو ثلاثة عشر الفًا من العدوّ على حصن دبه (قرب دنقلة) فصدتهُ الحامية وتتبعهم مدير دنقلة وقهرهم وشتَّت شملهم

وبقيت الخرطوم تحت الحصار يقاسي مَن فيها المخاطر والاهوال وغوردون يكتب الى الانكليز يستغيث بهم ويستنجدهم حتى اعتمدت الحكومة الانكليزية على ارسال سبعة آلاف جندي من عساكرها على طريق النيل لانقاذها وشرعت حالاً في تجهيز لوازم الحملة وعينت اللورد ولسلي قائدًا عامًا لها ثم بنت ثمانمائة زورق صغير لنقل العساكر فيها النيل من صرص الى دنقلة وكان طول الزورق منها ثلاثين قدمًا وعرضهُ ستًا ونصفًا وعمقهُ قدمين ونصفًا فيسع اثني عشر جنديًا بمهماتهم ومؤونة مائة يوم وسافر اللورد ولسلي من

لندن في ٣١ اغسطس (آب) وقبل ذلك ببضعة ايام انتصر غوردون على الاعداء المحيطين بهِ انتصاراً عظيماً وكسب منهم اشياء كثيرة وقتل منهم عدداً كبيراً

اما التعليمات التي لقّنها الجنرال ولسلي من الحكومة الانكليزية قبل سفرهِ فهي اولاً ان يخلص غوردون باشا والكولونيل ستيورت ويحضرهما من السودان ومتى تمَّ لهُ ذلك ان لايتوغل في اراضي السودان خطوةً سواءٌ كان لانقاذ كسالا او سنار اوغيرهما او لغير ذلك من الاغراض لان رأي الحكومة الانكليزية ان تستقل السودان عن مصر وتعود حدود القطر المصري الى وادي حلفا اعني اوسع مما كانت عليهِ في الاصل بنحو مائتي ميل . وثانياً ان يؤَسس حكومة في الخرطوم خصوصاً والسودان عموماً تدبر امورها بعد انسحاب حامية الخرطوم واعلانهُ حكومتهُ في الختام ان الحكومة المصريَّة تعين مبلغاً كافياً من النقود لمن يتعهَّد بادارة امور السودان وحفظ الراحة فيها ومنع التعدي عن اراضي مصر وتنشيط التجارة بين البلادين ومنع الاتجار بالرقيق منعاً تاماً

وسافر اللورد ولسلي من القاهرة في ٢٧ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٨٤ قاصداً وادي حلفا وكان قد سبقهُ اليها عدد كبير من العساكر والسفن والمهمات والذخائر . وفي اليوم الاول من اكتوبر (ت ١) وصل الى اصوان حيث شاهد كل التجهيزات العسكريَّة ثم ركب باخرتهُ وسار نحو وادي حلفا وفي اليوم الثالث من الشهر المذكور شاع ان اسطول غوردون جاء الى شندي وسار منها الى بربر ليحرقها بالقنابل . وفي السادس منهُ وردت رسالة

برقية من البكباشي كتشنر وكان في مقدمة الجيش لاستطلاع احوال العدوّ وتنسمُ اخبار الخرطوم يثبت فيها ضرب بربر ويقول ان الباخرة التي كان فيها الكولونل ستيورت رفيق غوردون شططت بين الشلال الرابع والخامس فتمكن العدوّ من قتلهِ هو ومَن كان معهُ . ويظهر مّما جاء من غوردون بعد ذلك من الكتابات وما رُوي عن ألسنة المحققين ان غوردون ارسل ثلاث بواخر الى بربر لهدمها ولمحاربة العدوّ وارسل فيها الكولونل ستيورت والمستر بوَر قنصل الانكليز في الخرطوم ومكاتب التيمس والموسيو هربين قنصل فرنسا فيها وطلب من هؤلاء الثلاثة ان يسيروا الى دنقلة بعد ضرب بربر. فسافروا في الحادي عشر من سبتمبر ولما وصلوا الى شندي تركوا فيها جانبًا من العساكر ثم توجهوا الى بربر فضربوها بقنابلهم وهدموا حصونها . ثم عادت باخرتان من الثلاث تحت قيادة خشم الموس باشا الى الخرطوم واما الثالثة فركبها الكولونل ستيورت ورفيقاهُ قاصدًا بن دنقلة واخذوا معهم مدفعًا وقطروا مركبين مملوَّين من النساء والاولاد وكان قصد غوردون من ارسال ستيورت ان يحث الانكليز على ارسال نجدة لكسر شوكة العصاة لانهُ لم يرَ فائدة من رسائلهِ التي كتبها لهم قبلاً . ولما وصلوا الى ابي محمد قابلهم العدوُّ فاطلق عليهم نارًا قوية حتى اكرههم على ترك المركبين ومَن فيها وسارت الباخرة وحدها ولكنها لم تسر الاَّ القليل حتى صادمت صخرًا فوقفت وكان ذلك بين الرابع والعشرين والثامن والعشرين من سبتمبر (ايلول) ولسنا نعلم علم اليقين ما جرى لها بعد ذلك وانما رُوي عن لسان رجل كان فيها ونجا من اسر العدوّان الاعداء تجمَّعوا على ضفتي النيل ثم نادوا الكولونل ستيورت وتعهدوا

لهُ ولمن كان معهُ بانهم لا يقتلونهم . ولكنهم لما نزلوا على الشاطئ وطلبوا منهم جمالاً لتوصيلهم الى دنقلة نكثوا بعهدهم وفتكوا بهم ولم يشاهد الراوي الكولونل ستيورت مقتولاً وانما قيل لهُ انهُ قُتل ورميت جثتهُ في النيل

ووصل الجنرال ولسلي الى وادي حلفا وامر حالاً بمد سكة حديدية بين حلفا وصرص ووكل ذلك الى فرقة من عساكر الانكليز المهندسين الذين درسوا آلات السكة الحديدية ولوازمها درساً مستوفيًا قبل خروجهم من انكلترا وتحمَّل الجيش مشقَّة عظيمة في تطليع مراكبهم وبواخرهم في الشلال الثاني لصعوبة المسير فيهِ . فقد استخدموا مرَّةً ستة آلاف عسكري مدَّة سبع ساعات لتخليص باخرة ناصف الخير من آخر الشلال وقس على ذلك

ونظَّم الجنرال ولسلي فرقة هجانة من جيشهِ الانكليزي بلغ عددها الفًا وخمساية جندي ويظهر انهُ اقتدى بنابليون الاول لما جاء الى القطر المصري ونظَّم فرقة هجانة من الفرنسيس كانت تسير ستين ميلاً في اليوم دون ان يقدم للجمال شيءٌ من العلف او الماء وكانت تنيخ الجمال في ساحة القتال وتطلق الرصاص من ورائها . فجعل اللورد ولسلي هجانتهُ مثل هؤلاء وكان الجندي يحمل جملهُ ايضًا نصف خيمة ومؤنة ثلاثة ايام من الزاد والماء لهُ ولجملهِ هذا عدا عن اسلحتهِ ومهماتهِ الحربية

ولما وصلت العساكر الى اصوان شرعت في التمرين على ركوب الجمال ولا يخفى على القارئ ما هنالك من الصعوبات والاتعاب على مَن لم يتعود ركوب الجمال ولما وصلوا الى دنقلة استعرض قسمًا منهم وهجم عليهِ بعض الفرسان واطلقوا عليهِ عياراتهم النارية بدون رصاص فثبتت الجمال في اماكنها.ولم

تذعر . وبمثل ذلك كانوا يعوّدون الجمال على اهوال الحرب ويدرّبونها على حركاتهم العسكرية

وامست الخرطوم في ضنك عظيم اذ ذاك لان فقد ستيورت كان خسارة عظيمة على غوردون فانهُ كان اقوى ركن لهُ يستند عليهِ وقت الضيق . ونفد الجانب الاعظم من الزاد وتكاثر عدد المحاصرين حتى قيل انهُ بلغ عشرين الفًا ثم جاء المهدي بنفسهِ وطلب من غوردون أن يسلّم المدينة فاجابهُ انهُ لا ينثني عن الحصار اثنتي عشر سنة فعاد المهدي وفي عزمهِ ان يفتتح المدينة عنوةً قبل وصول الانكليز اليها

ولما وصل اللورد ولسلي الى دنقلة سلَّم مديرها احمد حسين باشا خليفة رتبة واقب سار المنوحين لهُ من ملكة الانكليز مكافاةً على خدماتهِ في السودان وثبات جنانهِ في محاربة العصاة . ثم جاءتهُ رسالة من غوردون مؤَرخة في ٤ نوفمبر (ت ٢) يقول فيها انهُ لا يقدر على حفظ المدينة اكثر من اربعين يومًا ويشير عليهِ ان يجيءَ بعساكرهِ من امبوكول الى المتمة وقال في رسالتهِ هذه ان عدد العيارات النارية التي اطلقتها جنودهُ منذ ابتداء الحصار بلغت ثلاثة ملايين وان عند المهدي كثيرات من الراهبات اللواتي زوجهنَّ بالاسرى اليونانيين الذين عندهُ رغمًا عن الفريقين — ولما علم ولسلي ان الوقت كاد ينصرم عاد الى حلفا وشدَّد الاوامر بسرعة المسير خوفًا من سقوط الخرطوم قبل وصولهم اليها . فجدَّت العساكر في المسير برًّا وبحرًا . ولا يخفى ان الهواء الحار يضرُّ بالاجسام المعتادة على البلاد الباردة وهذا ما اصاب الانكليز في السودان فقد قيل ان كل جندي من سن الثلاث والعشرين فما دون لم

يسلم من داء اعتراهُ مدَّة الستة الشهور الأُول من الحملة

واعتمد ولسلي ان يسير الى القرطي فامر عساكرهُ بالمسير اليها فبلغتها في اواخر ديسمبر (كانون الاول) وحينئذٍ قسم جيشهُ الى قسمين وارسل احدهما تحت قيادة الجنرال أرْل ليتبع خطة النيل ويقهر العرب الذين قتلوا الكولونل ستيورت ثم يتقدَّم الى ابي حمد ويفتتح طريق الصحراء بينها وبين كورسكو لنقل المؤَن والذخائر عليها وكان عدد عساكر هذا القسم الفين ومائتي رجل واخذوا معهم الفًا وثمانماية جمل واربعماية حصان. واما القسم الثاني فارسلهُ تحت قيادة الجنرال السار هربرت ستيورت ليفتتح طريق الخرطوم المارَّة بالمتمة وكان عدد عساكرهِ الفًا وماية واخذوا معهم الفين من الجمال

الفصل الحادي عشر

في جيش الجنرال هربرت ستيورت

وتبين للانكليز انهُ لا بد لهم قبل التقدُّم الى الخرطوم من امتلاك آبار الهوايت وابي حلفا وجكدول الواقعة في البيوضة وهي صحراء تمتد من القرطي الى المتمة وعليهِ سافر الجنرال هربرت ستيورت بجيشهِ من القرطي في الساعة الثالثة بعد الظهر في يوم ٣٠ ديسمبر (كانون الاول) قاصدًا جكدول وبعد مسيرهِ تسعة اميال وقف الجيش في طلب الراحة هنيهةً ثم سار ذلك الليل كلهُ وفي الفجر جلست العساكر لتناول الطعام وانزلت الاحمال عن ظهور الجمال وحلُّوا عنهــا الرحال وبقوا هناك حتى الساعة الثالثة بعد الظهر وحينئذٍ عادوا يجدون السير وهم على هيئة قول (اعني خطوط متوازية كل خط وراء الذي امامهُ تمامًا) وكان الجنرال ستيورت قد قسم القوة الى اقسام

حتى يمكنهُ عند هجوم العدوّ بغتةً ان يشكّل ثلاثة مربعات احدها على جنب الآخر متقهقراً عنهُ قليلاً (تدريجله) وعند وصول الجيش الى هاشم وهي اوَّل الآبار رأوا عدداً قليلاً من العرب فظنهم البكباشي كتشنر من القبائل المسالمة للحكومة ولكنهُ لما دنا منهم رآهم مكتسين بجبَّة المهدي وايقن انهم من العصاة فهموا بقتلهِ لو لم تأتهِ شرذمة من خيالة الجيش اطلقت عليهم بنادقها طلقات قليلة فاكرهتهم على التسليم وبما ان الماء كان شحيحاً في هاشم تقدَّم الجيش حالاً الى آبار حمبوك فوصلوا اليها في الساعة الاولى بعد منتصف الليل وباتوا فيها

وفي الساعة الثامنة صباحاً قام الجيش من هذه الآبار قاصداً جكدول فوصل اليها في الثاني من يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٨٥ ولم يصادف على الطريق الاَّ عدداً قليلاً من العصاة فاسرهم بدون مدافعة لقلة عددهم. ووجدوا في جكدول ثلاث آبار فنزَّل الجنرال فرقة من عساكرهِ فيها ثم قفل راجعاً بالباقي الى القرطي ولما وصل الى حمبوك نزَّل فيها ايضاً بعضاً ووصل الى القرطي في اليوم السادس من يناير وارسل منها بعض الهجانة الى جكدول امداداً للعساكر الذين تركهم هناك . وفي ذلك الحين جاء رسول من غوردون الى اللورد ولسلي واخبرهُ ان عدد العدوّ المتجمّع حول الخرطوم كثير جداً فبعضهم يقول انهُ عشرون الفاً وبعضهم اربعون حتى الثمانين وان الخرطوم محصنة منيعة فلا يقدر عليها العدوُّ الاَّ اذا اداموا الحصار وقتاً طويلاً فحينئذٍ يموت مَن فيها جوعاً لان الزاد قليل جداً فيها

وفي اليوم الثامن من يناير ارسل اللورد ولسلي هربرت ستيورت مرة ثانية ليقابل العدوّ في المتمة وارسل معهُ الفاً وخمسماية صف ضابط ونفر وماية ضابط

والفين ومئتين وثمانية وعشرين جملاً وثلاثماية جمَّال وطني . فوصل الى جكدول في اليوم الثاني عشر منهُ وفي اليوم الرابع عشر ترك في جكدول ماية وخمسين جنديًا واخذ باقي الجيش وسار بهم قاصدًا النيل . وبعد مسير يومين وصلوا الى التلال التي بينها آبار ابي طليح فأُرسلت الخيالة بين الآكام للاستطلاع فوجدوا العدوَّ معسكرًا على مسافة ميلين غربي تلك الآبار . فامر الجنرال ان تبنى زريبة هناك وباتت العساكر فيها وهم في قلق وانتظار وفي اليوم الثاني لم يهجم عليهم العدوُّ فشكل الجنرال مربعًا وامر جميع عساكره ان يترجلوا ويتركوا مطيهم وخيولهم في الزريبة حيث يخفرها مئة وخمسون جنديًا ولم يأْخذ معهُ الاَّ بعض الخيالة وعددًا قليلاً من الجمال لحمل الذخائر ثم سار نحو العدو ليجبرهُ على الهجوم عليهِ او يكرههُ على الفرار فتقهقر العدو الى الوراء تدريجًا وهو يرمي الجيش برصاص البنادق واستمرَّ الجنرال مقتفيًا اثرهُ مدة ساعةٍ من الزمن حتى وصل الى ارض فسيحة متحدرة فاوقف الجيش فيها ظانًّا ان العدو اذا هجم عليهِ يأْتيهِ من الاسفل فيبددهُ برصاصهِ قبل ان يصل اليهِ ثم ارسل قبل الظهر بساعة فرقة من الخيالة لاغراء العدو على الهجوم وبينما هم على ذلك اذا العدو قد اقبل مسرعًا عليهم من الوراء فاستقبلتهُ قاعدة المربع بالسيوف والبنادق وكان الكولونل برنبي اركان حرب الحملة واقفًا هناك فهجم بسيفهِ على العدو وامر عساكر الضلع ان تتبعهُ فتبعتهُ واشتد القتال بينها وبين العدو حتى التحما . وقصد الكولونل برنبي بحملتهِ هذه ان يحمي الخيالة الذين أُرسلوا سابقًا ولكنهُ لم يمشِ الاَّ خطوات قليلة حتى ضيَّق العرب عليهِ المسالك ورموهُ بالرماح واعملوا فيهِ سيوفهم القواضب بعد قتال عنيف

حارب فيهِ محاربة الجبابرة ودافع دفاع اللبوة عن اشبالها . وكان قبل قتلهِ قد احب ان يعود بعساكرهِ الى المربع ولكن العدو سبقهُ فحال بينهما والتحم بالانكليز كالتحامهِ في واقعة طماي . وخدم العرب السعد في هذه الواقعة ايضاً بكون كثير من بنادق العساكر تعطلت بانسداد حدائد البنادق بظروف الرصاص الفارغة ولم تتمكن العساكر من اخراجها بسرعة ولاسيما لان العرب وصلت اليهم وشاغلتهم بالسيوف والرماح وقد جرى مثل ذلك في مدفعٍ من المدافع كان في وسط المربع فاقتحمهُ العدوّ وقتل الرجال والجمال فاصبح وسط المربع مختلطاً اختلاط الحابل بالنابل من عرب وانكليز وقتلى وجرحى وجمال نافرة وخيول مذعورة

ولما رأى عساكر ضلعي المقدمة والايمن ما حلّ في المربع سددوا رصاصهم واطلقوهُ على العرب الذين كانوا فيهِ فصدوهم عن التقدم وظلوا على ذلك حتى اخرجوهم منهُ وحينئذٍ انضمت اضلاع المربع ثانية وصرخت العساكر باعلى اصواتها ثلاث دفعات متوالية وعادت تقاتل قتالاً يشيب من هولهِ الاطفال فما كنت ترى منها الاّ ناراً مضطرمة كأن الجحيم فتح فاهُ ليأكل كل من يدنو اليهِ . ولم يبعد العرب الاّ القليل عن المربع حتى اعادوا الكرَّة عليهِ ولكن الرصاص كان كوابل المطر فصدّهم عن الوصول اليهِ غير انهم قتلوا كثيرين من صفوف الانكليز ثم تفرقوا بين الروابي والآكام

وقُتل من الانكليز في هذه المعركة تسعة ضباط وستون جندياً وجرح تسعة ضباط وخمسة وثمانون جندياً وكان عدد العدو ثمانية آلاف مقاتل فقتل منهم ثمانماية . ولا شك انهُ لولا التقادير لفاز العرب فوزاً تاماً ودارت الدائرة

على الانكليز فلم تبق منهم احدًا وليس من يقرأ تفاصيل هذه الواقعة الاَّ ويجد علَّة الخطاء من الكولونل برنبي لانهُ امر القاعدة ان تنفصل عن المربع فكان انفصالها اصل البليَّة ولم يكن مفوضًا باجراء ذلك من قائد الحملة الجنرال ستيورت

وبعد ان تفرقت الاعراب تقدم الانكليز الى الآبار لان الظمأ كاد يهلكهم ثم ارسل الجنرال قسمًا من العساكر لاحضار الجمال وباقي الذين تركوهم في الزريبة فاحضروهم . وبعد ان دفنت العساكر قتلاها باتت على الآبار ولم تذق عيونها الرقاد خوفًا من هجوم العدوّ وفي اليوم التالي الواقع في ١٨ يناير (كانون الثاني) قام الجنرال بها قاصدًا النيل وترك على الآبار سرية صغيرة وفي المساء وقف الجيش هنيهة للراحة ثم عادوا الى مسيرهم تحت جنح الظلام وكان قصد الجنرال من ذلك ان يصل الى شاطئ النيل قبل طلوع الفجر دون ان يلتقي باحد من العدو . وكانت العساكر قد اعياها تعب النهار وسهر الليل الفائت فلم تقدر أن تسير بسرعتها العادية واما الجمال فهلك منها عدد وافر من الجوع والتعب . وبالاجمال كان سير الجيش هناك سيرًا مضطربًا حتى شبههُ بعض من رآهُ على تلك الحالة بالجيش المنكسر المنهزم لتشتتهِ وتفرقهِ في تلك الصحاري الوعرة وكان كلما يقف المتقدمون لانتظار المتأخرين ترمي العساكر بانفسها على الارض عن ظهور المطايا لترتاح يسيرًا وتنام ولو لحظة لان النعاس كان قد اوهن اجسامها . وما زالوا على ذلك حتى اواخر الليل وحينئذٍ اعيوا من المسير لان الجمال اضناها الجوع فندَّت لترعى الانجم النابتة في تلك البراري ولم يقدر العساكر على ردها . فلما رأى الجنرال ستيورت ذلك

وايقن انهُ لا يقدر ان يصل الى النيل في الفجر امر العساكر بالوقوف وبعد قليل عادوا الى مسيرهم وفي الصباح وجدوا ان النيل يبعد عنهم نحو ستة اميال وانهم الى جنوب المتمة ويبعدون عنها نحو ستة اميال ايضًا . ولما علت الشمس في قبة السماء سمع الجيش اصوات طبول العصاة وزمورهم كأنهم عالمون بقدومهِ اليهم ثم ابصر كثيرين من الفرسان والمشاة يأتون من المتمة ويتحصنون في مركز بين الجيش والنيل ليمنعهُ عن ورود الماء فتقدم الجيش حتى صار على اربعة اميال من النيل ثم وقف قرب قرية صغيرة تسمى القبة

ثم امر الجنرال العساكر بان يبنوا زريبة من صناديق المهمات واكياس المؤونة ورحال الجمال لتحميهم من رصاص العدوّ وبينما هم لاهون بذلك تقاطرت عليهم الاعداء من جميع الجهات واطلقت عليهم الرصاص فشعر الجنرال بدنوّ الخطر . وفي الساعة الثامنة صباحًا امر بتشكيل مربع (قلعة) واستعدَّ للهجوم على الاعداء ولكنهُ قبل ان يباشر الهجوم ذهب الى ميمنة المقدمة ليتفقَّد احوال قسم من العساكر الذين كانوا يناوشون الاعداء (شرخه جيه) فاصابتهُ رصاصة فوقع جريحًا وحمل الى وسط المربع حيث كان الاطباء قد اعدُّوا محلاً للجرحى واحاطوهُ بالصناديق ولم يمض الاَّ القليل حتى ملأَت الجرحى وسط المربع فجعلوا يضعون مَن جاء بعدهم من المصابين خارج الدائرة المحاطة بالصناديق واصبح الجريح والطبيب معرَّضين معًا لرصاص العدوّ . وكان بجانب الجنرال كاتم اسرارهِ الخاص فخرج من المستشفى ليحضر لهُ متاعًا كان محزومًا على سرج جوادهِ فلم يسر مسافة ثلاثين قدمًا حتى اصابتهُ رصاصة في حلقهِ فوقع ميتًا

ولما جُرِح الجنرال ستيورت تولَّى قيادة الجيش الكولونل السار شارلس ولسون رئيس قلم الاخبار فعقد مجلساً حربياً في الحال ودعا اليهِ كبار الضباط وبعد ان تداولوا قرروا بان يبقى الجيش في مركزهِ ينتظر هجوم العدوّ فاذا لم يهجم قبل الساعة الثانية بعد الظهر تقدم الف ومئتان من العساكر على هيئة قلعة وفتحوا الطريق المؤدية الى النيل . وعليهِ استمر الجيش يحصن زريبته في المحل الذي كان نازلاً فيهِ وكان رصاص العدوّ يهطل على العساكر حتى بلغ عدد الجرحى منهم اربعين . وقُتل كثير من الجمال التي كانت تربط رؤُوسها باوظافها ثم تعقل عقلاً شديداً لئلَّا تنفر من صوت الرصاص . وتضايقت جرحى العساكر من قلة الماء وبقي الجيش على هذه الحالة حتى الساعة الثانية بعد الظهر وحينئذٍ قام السار شارلس ولسون بالف ومايتي مقاتل مصفوفين على هيئة مربع وترك في الزريبة حامية قوية وامرها بان تحمي المربع بمدافعها فسار المربع حتى وصل الى وادٍ عسر المسلك وحينئذٍ عرَّج عنهُ قاصداً ارضاً سهلة فهجم عليهِ جانب من العدوّ بقوة عظيمة ولكنهُ عاد خائباً بعد ان قتل رصاص الجيش عدداً وافراً منهُ ثم اعاد الهجوم على المربع وكأَنَّ الانكليز تعلموا الحذر في القتال بعد ما اختبروا شجاعة العرب وذاقوا مرَّ لقائهم ولذلك جعلوا يحاربون بكل تأَنٍّ وهدوٍّ فاذا رأَوا العدوّ هاجماً وقفوا في اماكنهم وتمدد الصف الاوَّل من المربع على الارض وبقي الثاني واقفاً واطلق الجميع معاً رصاصاً كوابل المطر ولذلك لم يقدر احد من الاعداء ان يصل في هجومهِ الى المربع في تلك الواقعة . والذي ساعد الانكليز هو قنابل المدافع التي كانت حامية الزريبة تطلقها على الاعداء فتشتت شملهم وتمنعهم

من التجمُّع ومهاجمة المربع دفعةً واحدة

وفي الساعة الرابعة ونصف بعد الظهر صار الجيش بالقرب من النيل وحينئذٍ هجم عليهِ نحو عشرة آلاف من العدو من ثلاث جهات فوقف المربع وقابلهُ كمقابلتهِ لهُ في الهجمات السابقة وظن الانكليز حينئذٍ ان العرب لا بد ان يصلوا الى المربع ويكرهوهم على الالتحام في القتال فسددوا الرمي بالرصاص ولم يقطعوا النار عنهم لحظة واحدة فارجعوهم القهقرى قبل ان يصل منهم الى المربع احدٌ. ثم تقدموا الى النيل واستقوا من مائهِ وهم لا يصدقون انهم وصلوا اليهِ. وباتوا تلك الليلة قرب قرية صغيرة تسمَّى ابا كري. وفي صبيحة اليوم التالي قام الجيش راجعًا الى الزريبة وترك الجرحى في ابي كري فوصلوا اليها في الساعة الثانية صباحًا. وقُتل من الانكليز في هذه المعركة ضابطان واثنان وعشرون جنديًّا وجُرح تسعة ضباط واثنان وسبعون جنديًّا وقيل ان عددَ القتلى من العدوّ في واقعتي ابي طليح والقبة بلغ ثلاثة آلاف

ولما وصل السار شارلس ولسون الى الزريبة امر الجيش بالتقدُّم الى النيل وبعد ظهيرة ذلك اليوم قامت العساكر منها وتركت في الزريبة خمسين جنديًّا فقط وحملت الجرحى على الايادي لانهُ قُتل من جمال الحملة عدد كثير وما بقي حمَّلت عليهِ الذخائر والمؤَن. وفي المساء بلغوا ابا كري وباتوا فيها وكان العدوّ متحصّنًا في المتمة تحصُّنًا منيعًا تحت قيادة احد الامراء فبعث اليهِ السار شارلس ولسون يخاطبهُ في امر الصلح ولكن الامير لم يجبهُ بشيءٍ فخرج في اليوم الحادي والعشرين من يناير (كانون الثاني) الف جندي من معسكر الجيش لافتتاح القرية ولما صاروا على بعد مئة يرد منها اطلق العدوّ عليهم.

قنابل مدافع الكروب ورصاص البنادق بسرعة غريبة فتاخروا قليلاً ومالوا الى الجهة الغربيَّة . واستمرَّ العدوُّ يطلق عليهم النار حتى الساعة العاشرة صباحًا وحينئذٍ رأى الانكليز العلم المصري يخفق على ثلاث بواخر قادمة في النيل من جهة الخرطوم . فعلموا أن غوردون ارسل هذه البواخر لنقل العساكر فيها الى الخرطوم فانتظروها بفروغ صبر ولمَّا وصلت وجدوا فيها مئتين وخمسين جنديًّا من الباشبوزق واربعة مدافع فانضمُّوا اليهم لمحاربة الاعداء وبينما هم على ذلك واذا بباخرة أُخرى وصلت من الخرطوم بالمهمات والذخائر . وبعد ان ناوش الجيش الاعداء نحو ساعة من الزمن ترجَّح عندهُ انهُ لا يستطيع افتتاح المتمة ولا يستفيد شيئًا من ضرب حصونها بمدافعهِ فقفل راجعًا الى ابي كري

وكان في البواخر التي وصلت من الخرطوم خشم الموس باشا فاحضر معهُ من غوردون كتبًا عديدة واخبر الانكليز ان الخرطوم في ضنك عظيم وان رجال الحامية قد فرغت منهم جعبة الانتظار فاذا لم تأْتهم نجدة في الحال يخشى ان تكون العاقبة سيئة . وكتب غوردون في ذلك الحين يقول ان رجلاً يدعى فرج باشا وهو سوداني الاصل كان غوردون قد رقاهُ الى وظيفة مهمَّة في الخرطوم وسلمهُ قيادة قسم من الحامية قد خانهُ سرًّا وهو الآن يخابر الاعداء ليسلم لهم المدينة وقال ايضًا انهُ قادر على الفرار بنفسهِ ولكنهُ لا يحب ان ينجو وحدهُ ويترك الحامية تقاسي المشقات كلها بعد ان ثبت معها كل هذه المدة ولذلك يفضّل ان يلاقي ما يلاقونهُ ويجعل نصيبهُ كنصيبهم

وعلم السار شارلس ولسون بجميع هذه الامور في اليوم الحادي والعشرين

من يناير (كانون الثاني) ولذلك صوب عليهِ الناس سهام الملام لعدم ذهابهِ حالاً الى الخرطوم لانقاذ الحامية فقد قال بعضهم انهُ لو سار اليها بمراكب غوردون بلا تأخر ولا مطل لفازت الحملة بغرضها وانقذت الخرطوم من الشرك الذي نصب لها

وفي اليوم الثاني والعشرين قام العساكر من ابي كري تاركين فيها عدداً قليلاً ونزلوا الى شاطئ النيل تماماً وتحصّنوا هناك وكان العدوّ محدقاً بهم وكلما تقدم اليهم قليلاً ناوشوهُ بطلقات متتابعة فيعود ويبتعد عنهم. وأرسلت البواخر الثلاث مع بعض العساكر الى شندي فضربوها بالمدافع وردموها ثم عادوا ولما وصلوا الى قرب معسكرهم وجدوا العدوّ كامناً في جزيرة تجاه المعسكر تماماً فاطلقوا عليهِ القنابل واكرهوهُ على اخلاء الجزيرة. وفي اليوم الثاني ارسل السار شارلس ولسون قافلة من الجمال الى جكدول ليحضر بعض المهمات والزاد لانها فرغت منهم وارسل معها ثلاثمائة جندي لتحرسها على الطريق. وقصد ايضاً من ارسال هذه القافلة اعلام اللورد ولسلي بما جرى للجيش بعد مبارحة جكدول

وفي اليوم الرابع والعشرين من يناير (كانون الثاني) اعتمد السار شارلس ولسون ان يسافر الى الخرطوم في مراكب غوردون. وقد لامهُ الانكليز على تأخرهِ هذا كما سبق ذكرهُ وقالوا انهُ كان من الواجب ان يسافر من مضي ثلاثة ايام اي من حين وصول اخبار الخرطوم اليهِ فان اللورد شارلس برسفورد كان قد رمّ الآلات المعطلة في الباخرتين الكبيرتين حال وصولها واعدّها للسفر. وسافر ولسون في الساعة الثامنة صباحاً بباخرتين واستصحب معهُ عشرين جندياً من الانكليز ومئتين من السودانيين

وفي الخامس والعشرين منهُ وصلوا الى الشلّال السادس نحو الساعة الثالثة بعد الظهر وبينما هم سائرون فيهِ صدمت الباخرة التي كان ولسون فيها صخرًا فوقفت وبعد ان انتشلها العساكر في اليوم التالي عادت فشطّطت وبقيت النهار بطولهِ هناك. وجاء اثنان من قبيلة الشايقية واخبرا ولسون انهُ قد مضى على حامية الخرطوم خمسة عشر يومًا وهم في حرب مستديمة مع الاعداء. وفي اليوم السابع والعشرين منهُ عاد المركبان الى السير ولما وصلا الى قرية جوز نفيسة وقفا لاخذ الحطب للوقود فجاء اعرابي واخبرهم بان قدم جمّال من الخرطوم وانبأ بسقوط المدينة وقتل غوردون ولكن الانكليز لم يصدقوهُ لقلة ثقتهم بهِ. ثم باتوا في قرية صغيرة وعادوا الى سيرهم في الساعة السادسة صباحًا من اليوم التالي

وبعد ان ساروا قليلاً رأوا رجلاً من قبيلة الشايقية يناديهم من الشاطئ الشرقي ويقول ان الخرطوم قد سقطت من مضي يومين فاضطربوا اضطرابًا عظيمًا وايقنوا ان مسعاهم قد حبط وان اتعابهم ذهبت سدى. وفي الساعة التاسعة صباحًا دخلوا الى قرية الوكيل امين وجزيرتهِ فوجدوا الشيخ مصطفى مستوليًا عليها وهو من زعماء العصاة وما زالوا سائرين ورصاص الاعداء يهطل عليهم من كل ناحية وهم ينظرون الى الخرطوم بالمنظار حتى مرّوا على حلفايا في منتصف النهار فوجدوا العصاة متحصنين فيها ومعهم اربعة مدافع فتبادلوا اطلاق القنابل حتى اجتازوهم واتوا الى جزيرة توتي فظن ولسون ان يرى فيها عساكر غوردون ولكنهُ لما صار على مسافة مائة وخمسين يردًا منها اطلق عليهِ العصاة الرصاص منها ثم سدّدت اليهِ كرات مدفعين من الخرطوم. ولما وصل

الى آخر الجزيرة فتحت عليه افواه اربعة مدافع أُخرى من مدافع كروب كانت موضوعة في حصن ام درمان فتحقق اذ ذاك ان العدوّ مستولٍ عليه. وتراكض العرب من كل النواحي وبنادقهم في اياديهم حتى اتوا شاطئ النيل وجعلوا يطلقون رصاصهم الى السفينتين. ونظر ولسون الى الخرطوم فرأى جنود الاعداء تمرح فيها داخلاً وخارجاً واعلام المهدي تخفق فوق حصونها وسطوح بيوتها والدراويش يتقاطرون الى الشاطئ لابسين جبّة المهدي وهم يهزُّون حرابهم بايديهم تهديداً لمن في الباخرتين ووعيداً بيوم كيوم غوردون. ثم تقدم احدهم الى شاطئ النيل وبيدهِ رايةٌ بيضاء كانهُ حامل رسالة الى مَن في السفينتين ولكن مدافع الاعداء وبنادقهم لم تكفَّ لحظةً عن الإطلاق من الخرطوم وام درمان وحلفايا فلذلك لم نتمكن من الوقوف لاخذ الرسالة. ثم تقدمت احداهما حتى صارت على مسافة مئتي يردٍ من شاطئ الخرطوم في الجهة الشمالية الغربية منها ونظر من فيها الى السرايا فلم يجدوا عليها رايةً مصريّةً ورأوا بعض الابنية مهدوماً فلم يبقَ عندهم ادنى ريب بان المدينة امست في قبضة المهدي. وبما ان الباخرتين كانتا مدرَّعتين بالحديد لم يقتل من العساكر الاّ اثنان وجرح ستة عشر فقط وانفجرت احدى قنابل العدوّ فعطلت بعض آلات الباخرتين وقيل ان جميع العساكر الذين كانوا في الباخرتين ظلُّوا يطلقون رصاصهم بكمل ثبات وتأنٍّ حتى كلَّت اكتافهم من الاطلاق

وبعد ان تأمل ولسون الاحوال ملياً وتأكد انهُ لا يستطيع النزول الى الخرطوم بعساكرهِ القليلة تحت رصاص العدوّ الغزير امر الباخرتين بالعود فعادتا وفي الساعة الرابعة وربع مساءً بعدتا عن مرمى العدوّ وجدَّتا في السير.

نحو ابي كري. ولما وصلنا الى جزيرة في سفح جبل ريان ارسلوا رسلاً ليجسوا الاخبار ويستخبروا عمَّا جرى لغوردون. فعادوا واخبروا ان الخرطوم سقطت في الليلة السادسة والعشرين بخيانة فرج باشا الذي سبق غوردون وكتب عنهُ فانهُ فتح ابوابها للعصاة فدخلوها وذبحوا غوردون ومَن بقي معهُ من الحامية

واما كيفية سقوط الخرطوم فلم نقف على حقيقتها لان المخبرين اختلفوا في نقل الاحاديث عنها ولكنهم اتفقوا جميعًا على انها لم تسقط الاَّ بخيانة فرج باشا وغيرهِ من رجال غوردون. ويظهر ان فرجًا هذا كان قد خان غوردون خيانة سابقة فحكم عليهِ بالاعدام. فجاء الى غوردون واستغفرهُ واقسم بان لا يعود الى مثل ذلك وان يكون لهُ عبدًا مطيعًا مدى الدهر فعفا عنهُ ولم يعاقبهُ. ولكنهُ لما قرب الانكليز من الخرطوم عاد الى غيّهِ زاعمًا انهم يعاقبونهُ على ما ارتكبهُ من الجرائم. والذي زاد الخطب تفاقمًا استيلاء العصاة على حصن ام درمان وهو احد حصون الخرطوم الخارجية وكذلك اوشك الزاد ان ينفذ من الخرطوم وخاف بعض رجال الحامية من الموت جوعًا فاتّحدوا مع فرج الخائن على تسليم المدينة ولا سيما لان قلوبهم ذابت فيهم لما علموا ان العرب جاءوا بعد واقعة ابي طليح ببرانيط الانكليز التي وقعت بايديهم وادَّعوا انهم قتلوا جميع مَن جاء لمحاربتهم من العساكر

قال بعضهم ان الاعداء دخلوا الخرطوم من البوابة الغربيَّة وكيفية ذلك ان غوردون كان قد عيَّن فرج باشا قائدًا للعساكر المقيمة في تلك البوابة تجاه العدوّ المعسكر في ام درمان وامرهُ ان يأذن بالدخول لمن يلتجئ اليهِ من العرب وفي اليوم الحادي والعشرين من يناير (ك ٢) ابلغ فرج مسامع

غوردون ان الزاد قد نفد من العدوّ وامسوا في ضنك عظيم ويحب كثيرون منهم ان يتركوا المهدي ويسلّموا للحكومة وانما يمنعهم من ذلك عدم استطاعتهم على قطع النيل الابيض والوصول الى الخرطوم . فصدَّقهُ غوردون وارسل باخرتين على ام درمان لتحضرا مَن شاء المجيء الى الخرطوم والظاهر أن المهدي ارشى ربانهما فجاء فيهما كثيرون من الاعداء وادخلهم فرج من البوابة الغربيَّة في صبيحة اليوم السادس والعشرين من يناير (ك ٢) وقال بعضهم ان العدوّ دخل من بوابة المسالميَّة وهي الجنوبيَّة وقال غيرهم ان احد الخائنين اخبر الحامية بقدوم العدوّ من ام درمان وعزمهِ على مهاجمة الخرطوم من الجهة الغربيَّة فلذلك تجمعت قوتهم هناك وجاء العدوُّ من باقي الجهات ففتح الخائنون لهُ الابواب . وقيل ان غوردون دخل الى كنيسة الكاثوليك هو وخمسمئة يوناني وجماعة من عرب الشايقية واخذ معهُ بعض الذخائر والمؤَن وحاصر فيها . فجاءهُ المهدي وطلب منهُ ان يسلّم فابى فضرب المهدي الكنيسة بالقنابل وهدمها هدمًا تامًّا فمات جميع من كان فيها . وفي روايةٍ أُخرى ان غوردون لما سمع صوت العدوّ خرج وفي يدهِ سيف وبلطة (وقال بعضهم رفولفر) وخرج معهُ ابرهيم بك رشدي رئيس كتابهِ وعشرون جنديًا وقصدوا بيت قنصل النمسا فصادفهُ جماعة من العرب وقتلوهُ واعملوا في جثتهِ حرابهم وسيوفهم ثم قتلوا جميع الاوربيين واما الوطنيون فسلم منهم عدد غفير وقيل انهُ سلم عدد قليل فقط واما الباقون وعددهم نحو الفين فذُبحوا . واما النساء والاولاد فسباهم العدوُّ وباعهم بيع الرقيق بعد ان سلب كل ما يملكونهُ

ثم جاء الدراويش الى فرج باشا وسألوهُ ان يدلهم على الخبايا التي فيها

نقود غوردون وباقي تجار الخرطوم. فاقسم لهم انهُ لم يكن عند غوردون نقود وانهُ لا يعرف اين خبأ التجار اموالهم. فقالوا لهُ انت تكذب ومرادك ان تحرز النقود كلها لنفسك لانهُ اذا لم يكن عند غوردون نقود ولا فضة فمن اين اصطنع كل هذه النياشين الفضية فان لم تدلنا على كنوز غوردون والتجار قتلناك فعاد واقسم لهم قسمهُ الاول وقال ان النياشين التي ترونها هي رصاص وليست فضة فان الفضة قد نفذت من غوردون منذ زمان طويل وكان في اواخر ايامهِ يعامل الناس بالورق عوضاً عن النقود ثم ذكَّرهم بما صنع معهم من المعروف بفتحهِ ابواب المدينة وتسليمهم اياها فهجم عليهِ احدهم وضربهُ بسيفهِ فقتلهُ "ولا ظالم الاَّ ويبلى بظالم"

واما السار شارلس ولسون فما زال سائرًا بباخرتيهِ حتى وصل الى الشلاَّل السادس حيث صادمت احدى الباخرتين صخرًا واوشكت ان تغرق فاخرج جميع ما كان فيها من الرجال والامتعة الى شاطئ رمليّ وامرهم ان يبيتوا هناك. وفي تلك الازمة اتاهم درويش حاملاً راية بيضاء فتوسموهُ واذا هو الدرويش الذي رأوهُ في الخرطوم وقدَّم لولسون كتابًا من المهدي يطلب منهُ ان يسلم هو ومَن معهُ. ولمَّا سلَّمهم الكتاب طلب منهم جوابًا قطعيًّا في الحال. فقال ولسن لخشم الموس باشا ان يحرر كتابًا للمهدي ويقول فيهِ انهُ سيسلّم للشيخ مصطفى الذي كان معسكرًا باربعة آلاف مقاتل في آخر الشلاَّل السادس. وقصد بذلك ان يمنع العدوّ من الاستعداد للقتال ويتخلَّص من رصاصهم وهو نازل في الشلاَّل. وفي اليوم التالي الواقع في ثلاثين يناير (كانون الثاني) عادت السفينة السالمة الى المسير وفي ٣١ منهُ صادمت صخرًا في آخر الشلاَّل فانكسر

مقدمها ودخل الماء اليها فنزل ولسون بعساكره الى جزيرة صغيرة هناك وانزلوا كل ما كان فيها ولم يتلف الاَّ قليلٌ من الذخائر. وكان العدوّ على اربعة اميال منهم فقط فامسوا في خطر عظيم ولم يعد في وسعهم ان يفارقوا تلك الجزيرة. وفي المساء ارسل السرشارلس ولسن ضابطًا من جماعتهِ يسمَّى ستيورت ورتلي في زورق صغير الى ابي كري لاحضار نجدة منها واصحبهُ باربعة من عساكر الانكليز وثمانية رجال من الوطنيين فسار الضابط ورفاقهُ الليل كلهُ حتى قطعوا مسافة اربعين ميلاً فبلغوا معسكر الانكليز في صباح اليوم الاوَّل من شهر فبراير (شباط) وتلك همة يندر مثلها في الرجال وجرأة وشجاعة لا تعهدان الاَّ في كبار الابطال

وكان الجيش حينئذٍ في ابي كري يناوش الاعداء كل يوم وهو لا يدري ما حلَّ بالسفينتين ولا بالخرطوم. وفي اليوم السابع والعشرين من يناير سمع الاعداء يزمرون ويطبلون ويكبرون ويهللون ويطلقون البنادق في الفضاء كأنهم قد بشروا ببشائر النصر والفوز. فلم يفهم الجيش مفاد ذلك ولا علم سببهُ. وحينئذٍ وصل الضابط ورفاقهُ فاخبروهم بما حل بالخرطوم وبانكسار السفينتين وبقاء ولسون ورجالهِ في خطر عظيم. فاشتد كدر الجيش وتقلَّص ظل آمالهم اذ علموا انهم بذلوا النفس والنفيس عبثًا وان مساعيهم قد خابت فارسلوا اللورد شارلس برسفورد في باخرة لانقاذ ولسون وارسلوا معهُ عشرين جنديًا. ولما صار تجاه مركز العدوّ على مسافة اربعة اميال من الجزيرة التي فيها ولسون ورفاقهُ اطلق العدوُّ عليهِ نارًا شديدة من افواه المدافع والبنادق فقابلهم بمثلها حتى اجتازهم وحينئذٍ اصابت قنبلة احدى آلات الباخرة فعطَّلتها .

فظن ولسون ان الآلة البخارية انكسرت ولم تعد تصلح للعمل وان وصول الباخرة اليهِ قد تعذَّر فقطع بعساكرهِ وذخائرهِ الى الشاطئ الايمن وشاغل العدوّ بمدافعهِ. ولما بعدت الباخرة قليلاً عن العدوّ وقفت واشتغل مهندسوها في ترميمها بسرعة غريبة فعادت آلاتها الى ما كانت عليهِ في زمان وجيز. وتقدم ولسون مسافة قليلة ايضاً ولكن لم يقدر ان يصل الى الباخرة في تلك الليلة لان الشمس توارت بالمغيب واقبل الليل عليهم بحالك الظلام. وفي الصباح تقدمت الباخرة اليهِ واحضرتهُ هو ومن معهُ وعادوا بهم الى ابي كري بعد مناوشات طفيفة مع الاعداء

الفصل الثاني عشر

في جيش الجنرال أرل وانسحاب الحملة الانكليزيّة من السودان

اما الجنرال أرل فسافر بجيشهِ من القرطي متبعاً خطة النيل قاصداً ان يؤدب العصاة الذين قتلوا الكولونل ستيورت رفيق غوردون. ووجدت العساكر مصاعب كثيرة على الطريق ولاسيما عند قطعها الشلالات ولذلك لم تصل الى نواحي كربكان قرب جزيرة دلكنه قبل اليوم التاسع من فبراير (شباط). وهناك علم الجنرال ان العدوّ قريب منهُ فامر عساكرهُ ان تبني زريبة. وبينما هم منهمكون في بنائها واذا بالعدوّ قد اقبل عليهم من الشلال واطلق عليهم رصاصهُ ولكن لما اقتربت طليعة الجيش منهُ عاد متقهقراً. وبات الجيش في ذلك المكان وهو حذر من هجوم العدوّ تحت جنح الظلام. وفي الصباح ارسل الجنرال فرقة من العساكر لتشاغل العدو من الامام واما هو فصف باقي الجيش على هيئة عمودين (قولين) متوازيين وسار بهم حتى وصلت

مقدمتهُ الى الجهة اليمنى من مؤخر العدوّ وبذلك احاطهُ من جميع الجهات لان النيل كان وراءهُ . وكان مركز العصاة حصيناً على اكمة مرتفعة وعرة كثيرة الاحجار اتخذها العدوّ متاريس وتحصنوا وراءها وبعد ما استمرّ اطلاق الرصاص وقتاً طويلاً بين الفريقين ترجح للجنرال انهُ لا يقدر ان يخرجهم كذلك من معاقلهم فأمر العساكر ان تجرّد الحراب وتهجم بها فلم يمضِ الاّ القليل حتى اكرهوهم على اخلاء اوكارهم . ولما وصلت العساكر الى رأس الاكمة تقدم الجنرال الى كوخ صغير كان مبنيّاً هناك وقال بعضهم انهُ ظنهُ خالياً من العدو وقال آخرون انهُ بُلّغ ان كثيرين منهم اختبأُوا فيهِ . وعلى كلٍّ فقد شاهدهُ احد ضابطة الانكليز داخلاً الى الكوخ . ولما هجم على العصاة اطلق عليهم عيارين ناريين فوثب عليهِ احدهم ورماهُ برصاصة في راسهِ ثم ضربهُ بالبندقية فوقع قتيلاً وحينئذٍ هجمت العساكر على الكوخ واحدقت بهِ من كل جهاتهِ وذبحت جميع من كان فيهِ من العصاة

وفي خلال ذلك ذهب الفرسان الى معسكر الاعداء وهو يبعد عن محل الواقعة ثلاثة اميال فامتلكوهُ . واستلم الجنرال بركنبري قيادة الجيش بعد قتل ارل وامر فرقة من العساكر ان تهجم على اكمة عالية وعرة جداً لان كثيرين من الاعداء التجأُوا اليها وثبتوا ثبات الابطال فاخرجتهم العساكر منها بعد محاربة عنيفة وكان ذلك ختام تلك المعركة التي استمرّت خمس ساعات متوالية . وبما ان العدوّ كان متفرقاً بين الآكام والوعور لم تعرف حقيقة عددهِ . قال بعضهم انهُ كان غفيراً وقال آخرون انهُ كان قليلاً ولكن قُتل اكثرهُ . واما الانكليز فقتل منهم الجنرال أرل وقائدان من رتبة

كولونيل (امير آلاي) وسبعة عسّاكر وجرح منهم اربعة ضبَّاط وواحد واربعون جنديًّا .

وبعد ان دفن العساكر قتلاهم تقدموا الى جهة ابي حمد ولكنهم لم يسيروا الَّا القليل حتى وردت اوامر جديدة على اللورد ولسلي من حكومتهِ فامرهم بالرجوع الى القرطي فعادوا

وكان اللورد ولسلي قد ارسل الجنرال بولر الى القبة ليستلم قيادة الجيش بعد ان جُرح السار هربرت ستيورت وامرهُ ان يفتح المتمَّة ثم يسير بالعساكر الى بربر ولكنهُ لما وصلت اليهِ الاوامر من حكومتهِ بانسحاب الجملة من السودان اصدر اليهِ امرًا باخلاء القبة وارجاع العساكر الى القرطي . ولما وصل بولر الى القبة في الثاني عشر من فبراير (شباط) امر باعداد الجيش بالرجوع الى القرطي على طريق صحراء البيوضة . وفي اليوم الثالث عشر منهُ ارسل الجرحى في المقدمة وارسل معهم حرسًا من العساكر وفي اليوم التالي من مسيرهم اقبل العدوُّ عليهم واحاط بهم وهم يتأهبون للرحيل فناوشوهُ وقتًا قصيرًا ثم التفتوا الى الامام فرأَوا غبارًا كثيفًا قد سدَّ عنان السماء فظنوهُ ينبئ بقدوم نجدة للعصاة وهم على ما كانوا عليهِ من ضعف الحال وقلة القوة فعظم عليهم المصاب وابتدروهُ باطلاق الرصاص وبعد قليل انقشع الغبار عن فرقة من عساكرهم قادمة الى القبة لنجدتهم فعظم سرورهم واستبشروا بالفوز ولما رأَى العدوّ نجدة الانكليز قادمة تقهقر وارتدَّ ناكصًا على الاعقاب .

ومات من الجرحى كثيرون قبل ان يصلوا الى القرطي ولاسيما في جكدول فحفر الانكليز لهم قبورًا هناك ودفنوهم قرب الآبار وفشت الحمى في الاصحاء

منهم ففتكت بهم فتكًا ذريعًا واماتت كثيرين منهم اذ لم ينجع فيهم دواء اطبائهم

واذا المنيةُ اقبلت لم يثنها حرصُ الحريص وحيلةُ المحتالِ

ودُفن هناك ايضًا الجنرال هربرت ستيورت اذ حضرتهُ المنيَّة حين وصوله مع الجرحى الى جكدول في السادس عشر من شهر فبراير (شباط) فمات شجاعًا شريفًا مأسوفًا عليهِ وبكاهُ كثيرون من ضباط الحملة وعساكرها الذين شاهدوا من شجاعتهِ ودرايتهِ في ابواب القتال ما علَّق قلوبهم بهِ

فلم يبلَ ذكرٌ منكَ كنتَ تجدُّهُ جميلٌ ولكنَّ البلى فيكَ اسرعا

وفي اليوم الثامن من مارس (اذار) تجمَّعت عساكر اللورد ولسلي مرَّة ثانية في القرطي فاثنى عليهم لثباتهم في ساحات القتال وقيامهم بالاعمال وصبرهم على المشاق واعلمهم بعزم انكلترا على تجريد حملة ثانية في الخريف المقبل

وكان الانكليز قد ارسلوا جيشًا من جنودهم الى سواكن ايضًا تحت قيادة الجنرال جراهم وقصدوا ان يفتحوا الطريق بينها وبين بربر ويمدوا فيها سكة حديدية . فتقدَّم العساكر واوصلوا الخط الى هندوب بعد ان ناوشوا الاعداء دفعتين وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وغنموا من قبيلة الهدندوة رايةً اهداها المهدي لعثمان دجنه ولكن جمالهم مات منها كثير في هذه المناوشات فاخَّرهم ذلك عن التقدُّم بمدّ السكة الحديدية تقدمًا سريعًا . ثم امتلكوا نقطتي عطوه وطمبوك واوصلوا الخط اليها . وفي اوائل ماي (ايار) جاء اللورد ولسلي الى سواكن وشاهد جميع ما فيها من المهمَّات والآلات

وفي اواخر ماي (ايار) اعتمدت انكلترا على اخلاء السودان من عساكرها لاسبابٍ دعتها اليها سياستها الخارجيةُ . وفي الحال امر اللورد ولسلي جميع الجنود الانكليزية التي كانت وقتئذٍ في السودان ان تنسحب فسافر مَن كان

في جهة سواكن ولم يتركوا فيها الاَّ عددًا كافيًا للدفاع عنها . وفي شهر يوليو (تموز) خرج الانكليز من دنقلا على نيَّة ان يتحصنوا في وادي حلفا وكورسكو واصوان ويتركوا للعصاة ما فوقها من البلاد

واما المهدي فبقي في حصن ام درمان يحشد جيشًا لافتتاح القطر المصري فتجمَّع عندهُ نحو ستة آلاف مقاتل وجاءهُ عثمان دجنه يهنئهُ بانسحاب الحملة الانكليزيَّة فاهداهُ سيفًا وجدَّد المعاهدة معهُ . وفي اليوم التاسع عشر من يونيو (حزيران) أُصيب المهدي بداء الجدري ولمَّا علم انهُ مشرف على الموت جمع اهلهُ واعوانهُ وحثَّهم على القتال وسلَّم سيفهُ لابن اخيهِ وعينهُ خلفًا لهُ ومات في مساء اليوم الثاني . فقام الخليفة عبد الله التعايشي وهو زعيم قبيلة البقارة وادَّعى السيادة بعد المهدي ونقل الخزنة وكرسي الاحكام من ام درمان الى سرايا الخرطوم وجعل خفارة المدينة بيد قبيلتهِ ولم يعطِ شيئًا من المال للجنود المحتشدة في ام درمان بدعوى انهُ يحفظ تلك الاموال لينفقها في الجهاد على القوم الكافرين . وبعد ايام تشاجر رجال قبيلتهِ واهالي الخرطوم وانتصر الجنود للاهالي واعانوهم على قوم عبد الله فخرج عبد الله اليهم ليصالحهم ويجمع كلمتهم فضربهُ احدهم بسكين فكانت القاضية عليهِ . ثم انتصرت قبيلة البقارة على منازعيها واستلمت زمام الاحكام في الخرطوم

ولم يُخمد موت المهدي شيئًا من الثورة بل بقيت على ما كانت عليهِ قبل موتهِ وظل العصاة يتجمعون ويقتفون اثر الانكليز ويستعدون لقتالهم وقيل انهُ بعدما اخلت عساكر الانكليز دنقلا احتلها اربعة آلاف من الدراويش . وعادت تجارة الرقيق الى ما كانت عليهِ في الزمن القديم وفتحوا لها الاسواق وتكاثر عدد النخَّاسين

الفصل الثالث عشر

واقعة جنس

واستلم الجنرال غرنفل باشا سردار الجيش المصري قيادة جميع الجنود الانكليزية والمصرية المتجمّعة في حدود السودان واعدَّ لهم حصوناً منيعة. وبلغهُ ان العصاة ارسلوا رسلاً كثيرة الى الاراضي المجاررة لحلفا يحثّون القبائل المسالمة للحكومة على شق عصا الطاعة واتباع المتمهدين فخاف من انتشار سم الثورة وارسل في اواخر اوغسطس (آب) سنة ١٨٨٥ ارسالية الى جنوبي حلفا وارسل معها عزتلو ملحم بك شكّور[1] كاتم اسراره ليستفحصوا عن حركات العدوّ ويحثّوا الاهالي على عدم الانقياد لاقوال العصاة ويفهموهم ان قصد الحكومة المدافعة عن اوطانهم ومنع الثائرين المعتدين عن نهب اطلالهم. فسافروا من عكاشا في باخرتين وقصدوا كل شيخ في قريتهِ وافهموهُ

(١) سافر عزتلو ملحم بك شكور الى السودان قبل تجريد الحملة الانكليزيّة وبقي بعد انسحابها مع الجنرال غرنفل وتعين وكيل قلم الاخبار في النقط المتقدمة في جيش الحدود فقام باعباء هذه الوظيفة حق القيام واكتشف بحكمتهِ وحسن تصرفهِ حركات العدوّ ومراكزهُ وقوتهُ فجاء بنفع عظيم للجيوش المصرية. وفي واقعة جنس كان بجانب الجنرال تحت نار العدوّ يحذّرهُ من الاماكن القوية في مراكز العصاة ويدلهُ على النقط الضعيفة فيها. وقد كتب سعادة السردار في الاوامر العسكرية الصادرة في ٢٠ يناير (ك ٢) سنة ١٨٨٦ نبذةً عدَّد فيها الفوائد التي استفادها الجيش منهُ واثنى عليهِ ثناء جميلاً. ولما عاد الى القاهرة أنعمت الحضرة الخديوية بالرتبة الثانية مع لقب بك مكافأةً على اخلاصهِ ونشاطهِ في خدمة الحكومة

مقصد الحكومة وبيَّنوا لهُ ان مرادها ليس امتلاك البلاد السودانية بل ان تكون القبائل المجاورة لحدودها مسالمةً لها . ومرُّوا على الشيخ محجوب ابن ادريس في كوبة وهو امير معروف في تلك الاصقاع فترحب بهم وانزلهم عندهُ واكرمهم وعاهدهم على مقاومة العصاة

وبنى الجيش حصناً في كوشة قرب مغرَّكة واستعد لملاقاة العدوّ وهو متقدّم نحو عكاشة. وفي اواخر سبتمبر (ايلول) ارسل السيّد العالي الحسب والنسب محمد سرّ الختم الميرغني رسالةً الى كافة عمد السودان ومشايخها مسهبة العبارة يحضهم بها على اطاعة الحكومة والارعواء عن غيّهم لعلّهم يذعنون فيكفُّوا عن سفك الدماء ويرتاح اهل مصر والسودان من هذه الحرب الطويلة. وهاك بعض ما في الرسالة قال اعزَّهُ الله

" بعد مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاتهِ كنا تركنا مكاتبتكم بسبب ما هو جارٍ في نواحيكم واما الآن فاملنا بالله تعالى ان تكون اسباب الفتنة قد زالت وربنا رضي عنكم فرأيتم ما حلَّ ببلادكم من سفك الدماء وهتك الاعراض وسلب الاموال وجلب الاهوال وجعل الحرائر المسلمات رقيقات غنيمة وشاهدتم هذا باعينكم وقد نظرتم فيما سبق قبل انتشار الفتن بدياركم حكم الحكومة المصرية وما بذلت لكم من الأَمن والمساواة في الحقوق وكف يد الطغيان وفلّ شوكة المعتدين " . . . .

ثم قال

" ولا شكَّ عندكم في ان جدي وآبائي عاشروكم معاشرة الناصح الامين وارشدوكم في دينكم ودنياكم وآخرتكم واجتهدوا معكم في الله سبحانهُ وتعالى وحينما

كنتم قابلين نصائحهم ومقبلين عليهم ومنقادين لاوامرهم التي هي امركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر مع حضكم على طاعة امرائكم نواب الحضرة الخديوية التي هي نائبة عن الخلافة النبوية كنتم متمتعين بالرفاهية والامان وحاصلين على اسباب السعادة والغنى وكان المسافر منكم يخرق البراري والقفار يبتغي فضل الله بتجارتهِ من مصر الى خط الاستواء تحت ظل الحكومة الخديوية لا يرى ما يضرهُ ولا ما يضر صالح تجارتهِ" ...... وختم الكتاب بقولهِ :

"فمن اطاع وسمع وتاب فالله يحب التائبين والعفو والسماح مبذول لهُ من لدن المراحم الخديوية أيدها الله ولا يسأل عما مضى ومن اصرَّ على طغيانهِ فسينظر بعينهِ سطوة الحكومة وانتم تعرفونها حق المعرفة ولا ازيدكم ايضاحاً في شأنها وارجو الله ان يلهمنا واياكم الصواب وان ينوّر قلوبكم وعقولكم لقبول النصيحة"

وفي اواخر اكتوبر (تشرين الاوّل) سنة ١٨٨٥ جاء كتاب من محمد الخير الخوجلي عامل المهدي بجهتي دنقلا وبربر الى الشيخ محجوب المذكور سابقاً يحثهُ على العصيان واتباع قوم المهدي وقال فيهِ بعد ان طلب منهُ نجدة

"وقد بلغكم حبيبي خبر سيرتهِ (اي المهدي) وما هو عليهِ من التقوى والزهد والخشية والتواضع وعدم الخوف الاَّ من الله فكيف حبيبي مع هذا كلهِ تخالفهُ وتتبع اعداء الله وانت قد قضيت عمرك كلهُ في الخيرات وبمثلك يقتدى" ثم ختم كتابهُ بهذه الاسطر "واعلم اننا قد حضرنا قريباً من الاوردي وان شاء الله عن قريب نحل بهِ وحررنا لك هذا نصيحة وشفقة عليك اذ انك محل دين وكنت قائد خير فان قبلتهُ وحضرت الينا فعليك امان الله

ورسولهِ ومالك وكلُّ من ياتي معك فآمن كذلك لك ما لنا وعليك ما علينا ونتساوى في الله وننصر دين الله وان لم تقبل فقد قال تعالى انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء. ولا بدَّ ان تحل جنود الله وانصار دينهِ بجهتكم وتحيط بكم وتاخذكم اخذًا وبيلاً. وجنود الله ما زالت متوالية لانها قد فرغت من سائر الجهات فانجُ حبيبي بنفسك وارفق بمن معك ولا تحارب اولياء الله فالله يستر عليك وفقَّك الله وهداك. واعلم حبيبي اننا لا ننقض عهد الله معك ان حضرت ولا نغدر بك بل نوفي معك ونزيد واحب شيء لدينا ان نجد مثلك معينًا في الدين فلا تخشَ من سوء والسلام"

وكان الشيخ محجوب قد عاهد الحكومة بالطاعة كما تقدم فارسل الكتاب الى السردار وقال لهُ انهُ ثابت على عزمهِ ولو ضربت الدراويش خيامها في اراضيهِ وطلب منهُ نجدةً من العساكر. وكان الجنرال ستيفنسون قد وصل حينئذٍ من مصر وبعد ان تداول مع الجنرال غرانفل قرَّ قرارهما على مساعدة الشيخ محجوب ماديًّا وادبيًا ولكنهما لم يسمحا بارسال نجدة من العساكر الى جنوبي كوشة. فاخبر السردار الشيخ محجوبًا انهُ ليس في نية الحكومة ارسال عساكرها الى جنوبي كوشة وعيَّنهُ حاكمًا على البلاد الواقعة جنوبي عكاشة وفوَّضهُ ان يجمع الخراج من الاهالي كما كانت تجمعهُ الحكومة سابقًا وينفقهُ على تجهيز جيش وبناء حصون لمحاربة العصاة في ولايتهِ واعطاهُ ايضًا عددًا من البنادق وكمية من الذخائر وامرهُ بان لا يسير الى جنوبي بلدهِ كويكة

وفي اواخر نوفمبر (تشرين الثاني) هجم الدراويش على كويكة واسروهُ وذهبوا بهِ الى محمد الخير فارسلهُ الى ام درمان بدعوى ان معاشرتهُ للكفار مدّةً طويلة زادت شرهُ شرًّا واوجبت ارسالهُ الى ام درمان ليسكن مدة من الزمن بجوار قبر المهدي يتبرك منهُ تكفيرًا عن اثمهِ

ثم تجمع العدوّ حول كوشة وصوَّب مدافعهُ على حصون العساكر وكان يتقدم الى مسافة قريبة منها ولكن العساكر لازمت جانب الدفاع ولم تتصدَّ لهُ الاَّ مُكرهةً. وفي اليوم السادس عشر من دسمبر (كانون الاول) سنة ١٨٨٥ خرج مئة وثلاثون جنديًّا من كوشة لطرد العدوّ من محل تحصن فيهِ بالقرب منها. وكانت قنابل العساكر تحميهم من الحصن واستمر القتال نحو ساعة ونصف من الزمن وحينئذٍ هجم العساكر بالحراب والسيوف واخرجوا الاعداء من اوكارهم فجُرح ثلاثة من ضباط الجيش جروحًا بليغة ومات منهم اثنان عقيب ذلك احدهما الطيب الذكر هنتر بك وقد كان شهمًا شجاعًا ليّن العريكة بكتهُ العساكر بدمع غزير واسف عليهِ كبار القادة اسفًا عظيمًا وفي خلال مدة المناوشة كانت مدافع العدوّ تضرب حصن الجيش بقنابلها ولكنها لم تأْتِ بضررٍ جسيم على من كان فيهِ

وفي ٣٠ دسمبر سنة ١٨٨٥ صمّم سعادة الجنرال غرانفل على مهاجمة العدوّ وطردهِ من نواحي حصن كوشة فقسم الجيش الى قسمين وارسل احدهما تحت قيادة الجنرال بتلر قبل طلوع الفجر الى جنس فسار مسافة ثلاثة اميال يقطع ارضًا عسرة المسلك وفي الساعة السادسة ونصف صباحًا ظهر لهم العدوّ فاطلقت المدفعية الذين كانوا في وُسط الجيش قنابلهم على مرمى الف وخمساية

متر ولكنهم لم يتمكنوا من اصابة الاعداء لانهم كانوا يختبئون وراء الروابي والآكام وهم يتقدمون إلى العساكر. ثم تقدمت عساكر المشاة وتبعتهم المدفعية وتعاضدوا جميعًا في اطلاق الرصاص فهطل على الاعداء كوابل المطر واستمروا على ذلك نحو نصف ساعة فانهزم العدوّ وتقدم الجيش الى جنس واحرق بيوتها. واما القسم الثاني فتولج قيادتهُ الكولونل هيوج من الجيش الانكليزي وسار بهِ الى ابي صاري حيث كان عدد عديد من الاعداء. ولم تخرج الاعداء من هذا الحصن لمقاتلة العساكر بل كمنت فيهِ واطلقت عليهم رصاصًا غزيرًا حتى التزم القائد ان يرسل سريّةً من عساكر الانكليز والسودانيين ليكرهوهم على الخروج منهُ بالسلاح الابيض ففعلوا ذلك وقتلوا منهم عددًا كثيرًا

وكسب الجيش من العدوّ في هذه المعركة مدفعين وقتلوا منهم نحو خمساية رجل وقتل من الجيش ضابط وستة عشر جنديًا وجرح ثلاثة ضباط وتسعة وانتهى القتال في الساعة العاشرة صباحًا

وامتاز اورطتا الهجانة والطجبة المصرية في هذه المعركة مع ان الحكمدار البكباشي الهمام حسن افندي رضوان جُرح في الحصن قبل المعركة فحرموا فوائد درايتهِ وتدبيرهِ ولكنهم هم والهجَّانة كانوا يحاربون محاربة الابطال ويقتحمون المخاطر والاهوال. وممن امتاز في هذه المعركة البكباشي الدكتور سليم افندي موصلي احد اطباء الجيش المقدَّمين فاثنى عليهِ السردار ثناءً جميلاً في الاوامر العسكرية لثباتهِ في المعارك وحسن عنايتهِ بالجرحى وسرعة انجازهِ للاعمال وسكون جاشهِ في حومة القتال وساحة النزال

ومنذ ذلك اليوم الى الآن خمدت نيران الحرب بين الفريقين ولم نعد
الاَّ بمناوشات طفيفة لا طائل تحتها كالمناوشة التي حدثت منذ بضعة
يع بين شرذمة من العساكر المصريَّة ورجال عثمان دقنا فقتل فيها القائد
كليزي تاب . واملنا بالله ان تكون تلك المناوشة خاتمة هذه الحرب
لويلة الهائلة وان يتوطد السلم في ظل رعاية الحضرة الفخيمة الخديوية
ا للبلاد وراحة للعباد ففي السلم خير مصر وخير السودان ايضاً . فاين
ل بلاد السودان الآن من حالة الرواج والسعة والراحة والامان
ي كانت فيها قبل ان شقَّت عصا الطاعة وخرجت على الحكومة المصرية .
لا ترى انها اضناها الضنك وضيق العيش وغابت منها شمس الامن
لعدالة وقامت فيها قائمة الجور والاعتساف فصار القويُّ يهتضم حق
ضعيف وامسى مال المجتهد الامين غنيمة الباغي الكسلان وقد اعوز اهلها
لعيش وسدَّت في وجوههم سبل الرزق فطلبوا المعيشة بالسلب والنهب
لذلك تراهم يشنُّون الغارة ويقلقون البلاد بالقتال لا دفاعاً عن مبدإٍ ولا
وداً عن وطنٍ بل طمعاً بنهب اموال العباد . وقد اتخذت الحكومة المصريَّة
سياسة الحزم والتدبير باخماد الثورة السودانية بقطع اسباب التجارة عن
لعصاة ومضايقتهم بالصبر والتأَني وفوائد ذلك في اسكان حركاتهم واضعاف
عزتهم وحل اتحادهم تنجلي اكثر فاكثر من يومٍ الى يومٍ فتسرُّ كل محبي
حكومة الحضرة الخديويَّة الفخيمة وتشرح صدور الموالين لها لا زال المولى
يتعهدها بحرسهِ وعنايتهِ ويصونها من بغي البغاة ويمكن صولتها على اعناق
العتاة الطغاة انهُ على كل شيءٍ قدير

هذا واني اختم هذا التاريخ بالثناء العاطر على قوّاد الجيش وضبّاط
الذين مدّوني في تأليفهِ بالاخبار ووصف المواقع واخصُّ بالشكر ديوان
الحربيَّة لِما اقتطفتهُ من سجلاتهِ عن واقعة جنس وتفاصيلها
ورجائي ان القارئَ الكريم يقابل هفواتي بالمعذرة وقصوري
بالاغضاء فسبحان من تفرَّد
بالعصمة والكمال

انتهى